مطبوعات
كتابي
يصدرها : حلمي مراد

حياة امرأة

الترجمة الكاملة لأقوى قصة طويلة كتبها

جي دي موباسان

٨ قروش

انها قصة كل زوج خائن ، وامرأة مخدوعة !

الجزء الثاني

جي دي موباسان

حياة امرأة



UNE VIE

كتابى

ملاحق خاصة تصدر عن « كتابى » فى المناسبات ، متضمنة ترجمة كتاب طويل كامل من الكتب العالمية الممتازة ، القصصية وغير القصصية ، فى كل موضوع ، لأعظم المؤلفين

يصدرها : حلمى مراد



مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب السادس

ترجمه : محمد بدر الدين خليل   وراجعه : حلمى مراد

الادارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦ ، ٦٥٦٠٨



« .. وبرح بها الأسى والألم ، فركعت الى جوار السرير ، تبكي في مرارة .. »

ملخص الجزء الأول

خرجت « جان » من الدير لتواجه الحيــاة ، وهى تواقة الى الاستمتاع بالسعادة التى طالما حلمت بها ٠٠ خرجت مغمضة العينين ، جاهلة بأمور الدنيا جهلا مطبقا ، نتيجة لرغبة والدها البارون « سيمون دى فود » ، الذى أدخلها الدير ، ولما تبلغ الثانية عشرة ، ليضمن ان تعود اليه فى السابعة عشرة ، كاملة الطهر والعفة ، فيشرع بنفسه فى تنبيه روحها الغافية وتنويرها !

وكان من الطبيعى أن تبدأ « جان » ، الفتاة اليانعة الناضجة ، فى التفكير فى ٠٠ الحب ٠ ولكن كان ثمة حاجز بينها وبين لقائه ٠٠ هذا الحاجز هو فتى أحلامها الذى لم يكن قد ظهر بعد ٠ ومع ذلك ، فكثيرا ما كانت تتخيل صورته ، وشكله ، ولون عينيه ، وطريقة حديثه ، وقد تملكتها انفعالات نشوة محمومة !

وسرعان ما قابلته ٠ كان الاثنان ينتميان الى طبقة النبلاء ، ويقطنان فى منطقة واحدة ، فلم يكن اللقاء غريبا ٠ وكان الفتى صورة لما تخيلته ، اذ كان يحظى بوجه من تلك الوجوه التى تثير الوجد فى قلوب سيدات المجتمع المتكبرات ، وتحمل البسيطات من فتيات الطريق على ان يلتفتن اليه !

وتآلف الشابان سريعا ، وأخذ قلباهما يزدادان قربى ، ثم ما لبث سلطان الحب أن تغلب على القلبين اليافعين ٠٠ واذا بجان تجد نفسها زوجة للشاب الوسيم ، الفيكونت « جوليان دولامار » ، واذا بها تشعر بأنها توشك أن تلج العالم المرموق !

وجاء يوم الزفاف ، حاملا فى طياته الحيرة والذهول لخريجة الدير ٠ واذ أوت الى مخدعها فى تلك الليلة ، أخذت تستعيد كلمات أبيها لها ، اثناء حفل الزفاف : « ٠٠ لا تنسى يا حبيبتى انك ملك مطلق لزوجك ، وهو الخليق وحده بأن يرفع لك الستار المسدلة على سر الحياة الجميل ! »

٠٠ واندست « جان » فى فراشها ، وبقيت تترقب ذلك الشىء الغامض الذى سيزيح الستار عن سر الحب الأكبر !

ولم يلبث زوجها ان وافاها ٠ واذ احتواها بين ذراعيه ، وراح يقبل فى نهم وشوق عنقها ، ويكاد يخنقها بعناقه ، احست بقلق رهيب يعصر نفسها ، وودت أن تفر ، لتحبس نفسها فى مكان بعيد عن هذا الرجل ٠٠

٠٠ وأصبح الصباح ، وأخذت جان تسترجع ذكريات الليلة الاولى ! اذن ، فهذا ما قصده أبوها بقوله : « لا تنسى يا حبيبتى انك ملك مطلق لزوجك »

ورحل العروسان الى كورسيكا لقضاء شهر العسل ٠ وكان « جوليان »

لا يفتأ يلاحقها برغبته ، غير عابىء بما اذا كان الوقت مناسبا أم غير مناسب ، حتى بدأ الاشمئزاز من مسلكه يتسلل الى نفسها !

وحين عاد الزوجان الى الضيعة التى خصصها أبوها لاقامتهما ، كانت علاقاتها بجوليان قد تغيرت تماما ، واختفى كل أثر للحب ! وكان قد تولى الاشراف على الضيعة والبيت ، فاختصر النفقات وأخذ يقتر عليها !

وفى أحد الأيام ، فوجئت جان بخادمتها « روزالى » تضع مولودا أمامها ، ولم تكن قد تزوجت بعد . وأراد زوجها أن يطرد الفتاة ، الا ان « جان » ـ وقد أيقنت ان الفتاة كانت ضحية غرر بها ـ أصرت على بقائها ، على ان يودع الطفل ملجأ ، ريثما تجد للضحية المسكينة زوجا !

وحاولت « جان » أن تعرف من « روزالى » اسم والد الطفل ، ولكن الفتاة أبت فى اصرار غريب ، وهى تذرف دموعا سخينة

وذات ليلة قارسة ـ وكان « جوليان » قد اتخذ لنفسه مخدعا آخر ـ شعرت « جان « بشىء رهيب يجثم على أنفاسها ويكاد يزهق روحها ، حتى خيل اليها أنها على وشك الاحتضار . وأسرعت الى الجرس فضغطت عليه تدعو « روزالى » .. ولكنها لم تجب . وأسرعت تبحث عنها فى غرفتها ، فوجدت فراشها خاليا ، ومن ثم قصدت غرفة زوجها لتوقظه .. وحين ولجت الغرفة ، كادت المفاجأة أن تقضى عليها .. فقد رأت « روزالى » راقدة الى جوار « جوليان » .. وأرسلت صرخة هائلة أيقظت العاشقين مذعورين ، ثم اندفعت هاربة من القصر ، حافية القدمين ، لا يستر جسدها سوى ثوب خفيف . وعلى حافة بعض التلال الجيرية ، توقفت وأخذت تفكر فى الالقاء بنفسها ، بعد اذ أدركت ان حياتها قد تحطمت .. وهمت بالوثوب ، لولا ان تمثلت لعينيها صورة أبويها دامعين ، وقد افترسهما الحزن والقنوط ، فارتمت على الجليد مسلوبة القوى ، حتى اذا جاء زوجها والخدم ، ورفعوها عن حافة الهاوية ، لم تقاوم . ثم ما لبثت ان دخلت فى غيبوبة طويلة !

وعندما استيقظت ذات صباح ، وقعت عيناها على أبويها ، فطفقت تروى لهما كل شىء ، بعد اذ أشرقت فى ذهنها الحقيقة : روت ـ فى تؤدة ، وجلاء ، ونبرات واضحة ـ ما كان من طباع « جوليان » ، وبخله ، وأخيرا خيانته !..

والآن .. تستطيع أن تتابع القراءة :

★ ★ ★

◆ **ورأى** البارون أنها كانت تتحـــدث فى وعى واتزان ، لكنه لم يدر ماينبغى أن يقول أو يفعل ، فاحتوى يديها فى راحتيه ، وقال فى حنان : « اسمعى ياحبيبتى ٠٠ كونى عاقلة ولا تتهورى ٠ حاولى أن تتحملى الامر الى أن نرى ماذا يمكن أن نفعل ٠ عدينى ! »

ـ أعدك يا أبت ٠٠ ولكننى لن أمكث هنا اذا ما تحسنت صحتى ٠٠

ثم أردفت متسائلة فى صوت خفيض : « أين روزالى ؟ »

فأجاب البارون : « لن تريها بعد الآن ! »

فعادت «جان» تتساءل فى اصرار : «أين هى ؟ ٠٠خبرانى!»

٠٠ فذكر البارون انها لم تبرح الدار ، وان كانت سترحل لا محالة ٠٠

وعندما غادر البارون وزوجته الغرفة ، لم يعرف غضب الاول حدا ، فقد آلمه أعمق الألم ماعوملت به ابنته ، فسعى فورا الى « جوليان » ، وقال له فى اقتضاب : « **لقد جئت ياسيدى أسألك ايضاحا عن مسلكك ازاء ابنتى ٠٠ لقد كنت غير وفى لها ٠٠ وأسوأ من هذا انك خنتها مع واحدة من خدمها !** »

وأجفل « جوليان » مأخوذا ، ثم أنكر الاتهام ، وأقسم بكل مقدس انه كان بريئا ، وتساءل عما لديهم من برهان ٠٠ أو لم تكن « جان » مختلة الذهن ؟ ٠٠ أو لم تكن مصابة بحمى مخية ؟ ٠٠ أو لم تفر فى نوبة جنون وسط الجليد ، لا يسترها سوى قميص النوم ؟٠٠ لقد كان هذا فى نفس الليلة التى زعمت فيها انها رأت « روزالى » فى غرفته ! ٠٠ وكان الشاب يتكلم فى غضب وبصوت مرتفع ، مهددا بأنه سيرفع الامر للقضاء ! فارتبك البارون وحاول استرضاءه ، فبسط له يده لكن «جوليان» أبى أن يصافحه !

ولم تغضب « جان » حين بلغها ماقاله « جوليان »، بل قالت في هدوء : « انه يكذب يا أبت العزيز ٠٠ ولكنا سنثبت ذنبه يوما ٠٠ »

* * *

◆ **وظلت** يومين هادئة ٠ وفى صباح اليوم الثالث طلبت أن ترى « روزالى » ٠٠ لكن البارون رفض ، زاعما أنها رحلت! على أن « جان » أصرت على أن يلحقوا بها ، واحتدم انفعالها حتى بدأت تبكى وتصرخ : « أريد أن أرى روزالى ٠٠ يجب أن أراها ! » ٠٠ ووصل الطبيب فى تلك اللحظة ، فأفضى اليه البارون بكل شىء ، طالبا مشورته ٠ فتناول الطبيب يد«جان» بين راحتيه وقال فى صوت خفيض : « **خففى عنك ياسيدتى ، فان أى انفعال لن يعود بغير الضرر الجسيم ٠٠ ان حياتك ، وحياة الجنين الذى فى احشائك ، مهددتان** »

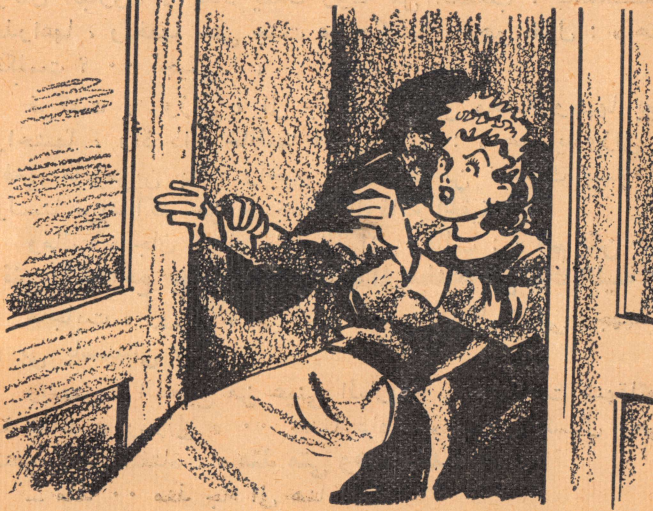
وبهتت « جان » ، وتذكرت فجأة انها أحست بشىء يتحرك فى أحشائها ، فاستلقت فى سكينة وهدوء ، غير حافلة بما كان يدور حولها ٠٠ واستغرقت فى التفكير ، فلم تنم ليلتها ٠٠ لم يشغل بالها سوى أن ثمة طفلا فى طريقه الى الدنيا ٠٠ طفلها ٠٠ ابن جوليان ٠٠ وأخذت ترتجف مشفقة حين خطر لها انه قد يشبه جوليان !

ودعت أباها ذات صباح ، وقالت له : « **يجب أن أعرف كل شىء يا أبى العزيز ٠٠ كل شىء بحذافيره ٠٠ أتسمعنى ؟ ٠٠ لا ، لا تعارضنى ، سيما الآن ، فان معارضتك لن تجدى ، ولن تنتج سوى الخطر ٠٠ اذهب فادع القس ، فان روزالى ستقول الحق اذا ماكان هنا ٠٠ أحضره ، وتعال وأمى معه ٠٠ وكن حريصا حتى لايرتاب جوليان ، والا أفسد كل شىء !** »

وان هى الا ساعة ، حتى جىء بالقس الى غرفتها ، فجلس لاهث الأنفاس ، يجفف العرق عن جبينه بمنديله الملون الكبير ٠٠ وما ان هدأت أنفاسه ، حتى شرع فى الدعابة ، قائلا

للبارونة : « أرى يابارونة انك لم تفقدى شيئا من سمنتك ، وما أحسب الا أن كلا منا يناسب الآخر ! » ، ثم التفت الى « جان » قائلا : « ما هذا الذى سمعته أيتها الشابة ٠٠ أحقا لن نلبث أن نقيم حفل تعميد عما قريب ؟ ٠٠ آه ! ٠٠ آه ! ٠٠ ولكننا لن نعمد مركبا فى هذه المرة » ٠٠ ثم أردف فى جد : « وانما سنعمد مدافعا عن الوطن » ٠ وشرد بذهنه لحظة ، ثم قال : « ٠٠ مالم يأت الجنين زوجة وأما صالحة مثلك ياسيدتى » ٠٠ وانحنى للبارونة

وفتح الباب ، وبدت « روزالى » والبارون يدفعها ٠٠ وكانت تأبى أن تدخل ، وتكافح بجهد المستميتة ، فلم يلبث البارون أن فقد صبره ، ودفعها دفعة قوية أرسلتها الى وسط الغرفة ،



فوقفت لحظة جامدة ، وقد غطت وجهها براحتيها ٠٠ ثم انخرطت فى البكاء بحرقة ، وكأن قلبها يتفطر ٠٠

واعتدلت « جان » فى فراشها وقد شحب وجهها ـ اذ رأت « روزالى » ـ حتى حاكى وجوه الموتى ٠ ٠ وأخذ قلبها يخفق بسرعة حتى أضحت تتنفس فى عناء ، وبدا كأن الانفعال يوشك أن يخنقها ٠٠ وأخيرا تكلمت فى جهد ، قائلة للفتاة : « **لا حاجة بى الى أن أسألك ٠٠ فان نظرة الاستحياء من الاثم، التى تعلو وجهك ، تغنى عن السؤال ٠٠ ولكن لا بد من أن أعرف كل شىء ٠٠ كل القصة ! لقد سألت الأب أن يكون حاضرا ، حتى تقولى الحقيقة ٠٠ حتى يكون كلامك اعترافا ٠٠ أتفهمين ؟**»

ووقفت « روزالى » بلا حراك ، وهى تشد قبضتيها ٠٠ وكان البارون لا يكاد يملك روعه من الغضب ، فأمسك بذراعها ، ودفعها حتى جثت على ركبتها ، وهو يقول : « هلا تكلمت ؟ ٠٠ أجيبى ! »

فركعت « روزالى » الى جانب الفراش مخفية وجهها بين راحتيها ، واذ ذاك خاطبها القس قائلا : « هيا ياروزالى ، افعلى ماتؤمرين به ، وأجيبى ٠٠ اننا لن نصيبك بسوء ، ولسنا نريد أكثر من أن نعرف الوقائع الحقيقية »

ومالت « جان » على حافة الفراش وقالت : « **ألم يكن حقا اننى رأيتك مع جوليان حين ذهبت الى مخدعه فى تلك الليلة ؟**»

فأجابت « روزالى » فى أنين ، وهى لاتزال تخفى وجهها : « بلى ياسيدتى »

وانهمرت الدموع من عينى البارونة ، واختلطت شهقاتها بشهقات « روزالى » ٠٠ بينما عادت « جان » تسأل وهى تتفرس فى الفتاة : « **منذ متى وهذا يحدث ؟**»

ـ منذ ٠٠ منذ جاء الى هنا !

ولم تفقه « جان » جوابها ، فهتفت : « **منذ جاء الى هنا ٠٠ أى ٠٠ منذ الربيع الماضى ؟** »

ـ أجل ياسيدتى ٠٠

ـ منذ أول يوم جاء فيه الى هنا ؟

ـ أجل ياسيدتى ٠٠

وأمطرتها « جان » بالاسئلة وهى تتكلم بسرعة : « **نبئينى كيف حدث هذا ٠٠ كيف سألك أن تكونى له ؟ ٠٠ وماذا قال لك ؟٠٠ وكيف انصعت له ؟ ٠٠ وكيف رضيت بأن تسلميه نفسك ؟** »

ورفعت « روزالى » وجهها عن راحتيها أخيرا ، وقد تملكتها فجأة رغبة محمومة فى أن تتكلم ٠٠ وأن تفضى بكل شىء !٠٠ ومضت تقول : « **لست أدرى ٠ كان ذلك يوم جاء الى هنا ليتناول العشاء للمرة الاولى ٠٠ فلقد اختبأ فوق سطح البيت، ثم سعى الى غرفتى بعد أن أوى كل شخص الى مخدعه ٠ ولم أجرؤ على الصراخ ، خوف الفضيحة ، ومن ثم مكث فى غرفتى طيلة تلك الليلة ٠ ولم أكن أدرى ماكنت أفعل ٠٠ تركته يفعل بى ماشاء ، لأننى أحببته !** »

فصاحت « جان » فى ألم مبرح « **اذن ، فطفلك ٠٠ ابنه ؟** »

فأجابت « روزالى » منتحبة : « أجل ياسيدتى »

ولم ينبس أحد ببنت شفة ، أو يعكر الصمت سوى نحيب روزالى والبارونة ٠ وطغى الأسى على « جان » ، ففاض الدمع من عينيها وانحدر فى صمت على وجنتيها ٠٠ **ان ابن خادمتها ينتمى الى نفس الاب الذى ينتمى اليه جنينها !٠٠ وكان غضبها قد انفثأ ، فلم تعد تشعر بغير قنوط كئيب ، لا نهاية له ، ولا سبيل الى التخفف منه !**

وعادت « جان » تسأل فى صوت مختنق : « متى أستأنف علاقته معك ، بعد عودتنا من ٠٠ من رحلتنا ؟ »

فأجابت « روزالى » : منذ الليلة الاولى ٠٠ »

واخترمت الكلمات قلب « جان » كأنها طعنات خنجر . اذن ، فقد تركها « جوليان » فى الليلة الاولى بعد عودتهما الى قصر « الحور » ، كى يذهب الى خادمتها ! ؟ واذن ، فهذا سر بروده نحوها ! .. واكتفت بما عرفت ، فلم تعد تبغى مزيدا ، بل صرخت : « أخرجى ! .. اغربى عنى ! »

ولم تتحرك « روزالى » .. كان الخوف قد شل حراك الفتاة المسكينة ، فصاحت « جان » بأبيها : « دعها تخرج .. اخرجها ! » .. وقدر القس ــ الذى لم يفه بكلمة طيلة هذه الاثناء ــ ان الوقت أصبح مناسبا لكى يلقى احدى مواعظه ، فقال موجها كلامه الى « روزالى » : « لقد ارتكبت اثما فظيعا .. وكم أخشى أن لا يغفر لك الله . فكرى فى هذا ، فان جهنم مصيرك اذا لم تثوبى وتستقيمى ! .. ولمصلحة طفلك ينبغى ألا تفعلى بعد الآن ماتلامين عليه .. ولا شك فى أن البارونة ستدبر لك أمرك ، وستجد لك زوجا .. »

وكان القس على استعداد لان يمضى فى عظته الى مالانهاية، لولا أن البارون كان قد أمسك بمنكبى روزالى ، وألقى بها خارج الغرفة كحزمة من أسمال بالية .. حتى اذا عاد ، بدا فى شحوب الموتى ، أشد شحوبا من « جان » نفسها !

وعاد القس يقول : « كلهن سواء فى هذا الاقليم ، لا تتزوج الواحدة منهن قط الا بعد أن تنجب طفلا !.. اننى أعرف أن هذا فظيع ، ولكن ما الذى نملك أن نفعله ؟ .. ان الطبيعة البشرية ضعيفة ، ومن واجبنا أن نتسامح .. ويبدو أن الخطيئة بمثابة عادة » .. وابتسم ، ثم عبس وهو يستطرد قائلا : « عادة ، حتى بين الاطفال ! ..أو لم أباغت اثنين منهم فى المقبرة فى العام الماضى ؟ .. افتعرفون ماذا كانت اجابة أهلهما حين أخبرتهم ؟.. قالوا : « ليس هذا ذنبنا يا أبت ، فلسنا نعلمهم أمورا كهذه » .. أرأيتم ؟.. فخادمتكم اذن لم تفعل سوى مايفعله بقية القوم »

وقال البارون وهو يرتجف حنقا : « **اننى لا ألوم الفتاة ٠٠ انما ألومه هو ٠٠ الوغد ، الجبان ! ولسوف أفصل ابنتى عنه» ٠٠ وراح يذرع الغرفة بخطى واسعة ، وهو يزداد غضبا فى كل دقيقة ٠ ثم استطرد : « انه وغد ، خسيس ، شقى ، خدع ابنتى ، ولسوف أجاهره بهذا ٠٠ لسوف ٠٠ أقتله !**

فتنشق القس بعض السعوط فى تؤدة ، وهو يتدبر خير وسائل التوفيق ٠ ثم قال : « مهلا ٠٠ انه ــ « بينى وبينك » ــ لم يفعل سوى مايفعله كل الرجال ٠ فهل يزيد الاوفياء ، بين الازواج الذين تعرفهم ، عن عدد أصابع اليد ؟ ٠٠ انت مثلا ٠٠ ؟ » ، وأومضت عينا القس فى خبث وهو يستطرد : « انت مثلا ٠٠ لقد فعلت عين الشىء ولا بد » ٠٠ فتوقف البارون عن السير فى الغرفة ، وحملق فى القس ، الذى مضى يقول : « أجل ، لقد فعلت ما يفعله بقية الرجال ٠٠ اذ أؤكد لك انهم جميعا يقترفون الذنب ذاته ٠٠ ومع ذلك، فان حبك لزوجتك لم يقل أو يضعف ٠٠ أليس كذلك ؟ »

وسمر البارون فى مكانه ، وقد بدا عليه الاستياء والتردد ٠٠ انه كان يرتكب فعلا عين الذنب ، كلما كانت الفرصة تسنح له ، لاسيما حين كانت الخادمات يمتزن بالجمال ٠ أفتراه كان وغدا اذن ؟٠٠ لم يقسو فى الحكم على « جوليان » بهذا الشكل ، فى حين انه لم يفكر قط فى الحكم على مسلكه الشخصى بنفس القسوة ؟

وابتسمت البارونة فى لطف ــ وهى لاتزال دامعة العين ــ اذ تذكرت « فلتات » زوجها ٠٠ وكانت فطرتها عاطفية ، سهلة التأثر ، سريعة الصفح ٠٠ كما كانت ترى فى المغامرات العاطفية جزءا من وجود كل انسان !

واضطجعت « جان » محدقة فى الفضاء أمامها ، تفكر فى اعتراف « روزالى » ٠٠ وعادت كلمات التعسة ، تفعم نفسها بالحزن الموجع : « تركته يفعل بى ماشاء ، لأننى أحببته ! »٠٠

وهى الأخرى أحبته ، ولهذا السبب وحده منحته نفسها ، وربطت حياتها بحياته ٠٠ لقد وقعت فى شباكه ، فكان جزاؤها الشقاء ، والاسى ، والقنوط ! ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ لأنها ، مثل روزالى ، « أحبته » !

وفتح الباب فى عنف ، ودخل « جوليان » بادى الهياج ٠ كان قد قابل « روزالى » على السلم وهى تبكى ، فأقبل وقد حدس ان ثمة أمورا تجرى ، وخشى أن تكون قد اعترفت !٠٠ واذ رأى القس ، وقف جامداً ، وتساءل فى صوت غير متزن ، حاول أن يجعله يبدو هادئا : « ماذا جرى ؟ »

ولم ينبس البارون ـ الذى كان منذ دقيقة محتدم الغضب ـ ببنت شفة ، فقد خطر له ماذكره القس عن مسلكه ٠٠ وارتفع نشيج البارونة عن ذى قبل ٠٠ أما « جان » فاستوت جالسة فى السرير تحدق فى « جوليان » الذى جعلها تتعذب بهذه القسوة ٠٠ ثم قالت متلعثمة :

ـ الذى جرى هو اننا لم نعد فى غياهب الجهل ٠٠ اننا نعرف كل شئ ـ كل شىء ، هل فهمت ؟ ـ نذالتك ٠٠ وتصرفك الخسيس منذ ٠٠ منذ اليوم الذى ولجت فيه هذه الدار ٠٠ كل هذا تكشف لنا ٠٠ ان ابن روزالى ابنك ، مثل ٠٠ مثل ابنى ! ٠٠ سيكونان اخوين !

وأعجزها ان تملك زمام أعصابها ازاء هذه الفكرة ،فانطرحت على السرير تبكى فى حرقة ٠٠

وبهت جوليان ٠٠ لم يدر ماذا ينبغي أن يفعل أو يقول ٠ ومرة أخرى ، خف القس لانقاذ الموقف ٠ فاقترب من الفراش ، ووضع يده على جبهة جان قائلا :

ـ كفى ياسيدتى العزيزة ٠٠ تعقلى ٠٠ لاتدعى الاشياء تملك عليك قلبك بهذه الدرجة ٠٠

وأدخلت لمسة يده على نفسها سكينة ٠٠ كانت يد اعتادت

أن تواسي وأن تبرىء الجراح ، وقد أوتيت قدرة خفية على بث الطمأنينة .. واستأنف القس حديثه قائلا :

- يجب أن نغفر ياسيدتى .. صحيح انك فى محنةشديدة، ولكن الله أرسل لك بواسع رحمته سعادة عظيمة يعوضك بها عن حزنك .. سيكون طفلك مبعث سلوى لك ، وانى باسمه أضرع اليك أن تصفحى عن زوجك !.. ان هذا الطفل سيكون رباطا بينكما .. سيكون ضمانا لاخلاص زوجك فى المستقبل .. أفتقوين على العيش منفصلة عن والد طفلك الى الابد ؟

ولم تجب «جان» ، فان الجرح والانهاك اللذين أصابا نفسها وجسمها لم يدعا لها قوة ما ، سواء للغضب أو للرضى والصفح .. وقالت البارونة ، التى كانت تعجز دائما عن المضى فى الحقد والحنق : « ألا اصفحى أيتها العزيزة جان !»

وأمسك القس بيد « جوليان » فوضعها فوق يد زوجته ، فى رفق ، وكأنه يربط بينهما ، ثم قال مستأنفا لهجته الطيبة : « صدقانى ان هذا خير وأبقى »

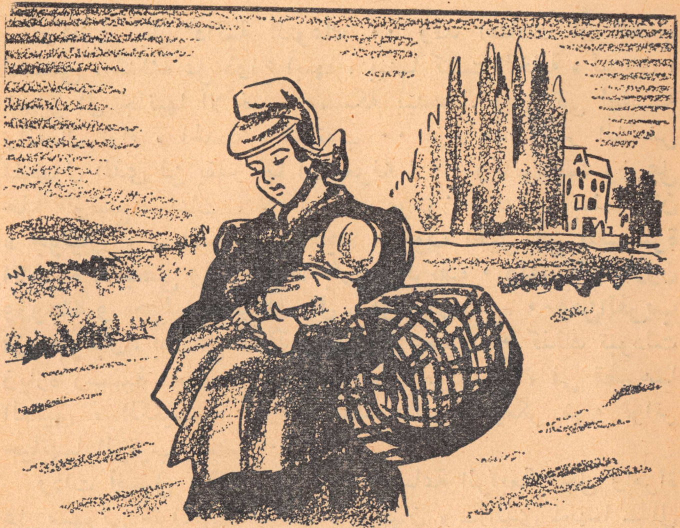
ولم تمض دقيقة على اتحاد يديهما ، حتى انفلتتا منفصلتين . ولم يجسر « جوليان » على أن يقبل « جان » ، ومن ثم قبل جبهة البارونة ، وتأبط ذراع البارون مقترحا أن ينصرفا من الغرفة ليدخنا . وابتهج البارون اذ سويت الامور بهذهالطريقة المرضية ، فنسى كل ماكان يخالجه من غضب نحو « جوليان»!

واستغرقت « جان » فى النوم بعد انصرافهما ، فراح القس والبارونة يتحدثان همسا - القس يرسم خطته ، والبارونة توافق على كل شىء - قال القس : «اذن،فقدأصبح من المفهوم انك ستمنحين « روزالى » مزرعة (بارفين) ، وسأتكفل أنا بأن أجد لها زوجا .. آه ! **لن يكون من العسير العثور لها على زوج .. فما دامت هناك العشرون ألف فرنك ، فسوف تجد خاطبين كثيرين .. ومن ثم فالمسألة تنحصر فى اختيار الصالح منهم »**

وابتسمت البارونة ، وقد أحست بالارتياح ، رغم أن آثار الدموع كانت لاتزال على وجهها ٠٠ ثم قالت : « ولكن ، لاتنسى أن مزرعة (بارفين) تساوى عشرين ألفا من الفرنكات على الاقل ، وانها يجب أن تكتب باسم الطفل ، على أن ينتفع بها الزوجان ابان حياتهما »

وتأهب القس للانصراف ، فصافح البارونة قائلا : « لا تزعجي نفسك يابارونة ٠٠ اننى أدرك حقيقة الموقف ،وسيكون لكل خطوة حسابها »

وصادف ، وهو خارج ، الخالة « ليزون » مقبلة لترى «جان» ٠٠ وكالمعتاد ، لم يداخل الخالة الارتياب فى شىء ، ولم تعرف شيئا ، أو ينبئها أحد بشىء !



الفصل الثامن

• **استبدلت** الأسرة بروزالى فلاحة ضخمة الجسم ، قوية ، أخذت تعين البارونة حين كانت تقوم بنزهتها اليوميـــة فى الطريق التى كانت حبيبة الى نفسها ، والتى كانت آثار قدميها الثقيلتين ترتسم عليها يوما بعد يوم ٠

ومضت « جان » تجتاز مرحلة الحمل الأليمة ، وهى تترقب الوضع فى غير احتفال ، ولكن فى خوف دائم من أن يحيق بها نحس جديد ٠٠ فقد ظلت مثبطة الروح من جراء أحزانها الاخيرة ٠٠ ومالبث الربيع أن أقبل ، وكانت لا تزال ثمة بقية من قر الشتاء ، بيد ان زهور الحقل بدأت تنبت فى الحفر والاخاديد ، تحت أوراق الشجر الذابلة ٠٠

وكانت جان دائمة التوعك .. وقد اعتادت أن تخرج لتتمشى ، متكئة على ذراع ابيها ، بينما كانت الخالة « ليزون » تسير الى جانبها الآخر ، ممسكة بيدها ، وهى فى لهفة وانفعال ازاء « الحدث » المرتقب .. ازاء هذا السر الغامض المجهول الذى لن يقدر لها أن تعرفه ! .. وكانوا يمشون على هذا الوضع ساعات ، لايكادون يتفوهون بكلمة ، **بينما كان « جوليان » - الذى أولع فجأة بركوب الخيل فى الفترة الاخيرة - يقضي وقته مطوفا بأرجاء الريف . ولقد قام البارون وزوجته و «جوليان» بزيارة آل « دي فور فيي» ..ومن الغريب ان «جوليان» بدا على علاقة وثيقة بالزوجين** .. كذلك تبودلت زيارة رسمية أخرى مع الزوجين « دوبريزفيل » فى قصرهما العتيق ، الكئيب .. وفيما عدا ذلك لم يعكر شيء تواتر حياتهما الرتيب الممض ..

وذات أصيل ، أقبل فى نحو الساعة الرابعة رجل وامرأة على صهوتى جوادين ، فدلف « جوليان » - الذى لمحهما - الى غرفة « جان » قائلا لها فى انفعال : « اسرعى .. اسرعى بالنزول ، فقد أقبل الزوجان « دى فورفيى » كى يطمئنا على صحتك .. قولى اننى فى الخارج ، واننى لن ألبث أن أعود ، ريثما أفرغ من ارتداء ثيابى »

ودهشت « جان » ، لكنها هبطت لتستقبل الزائرين .. **وكانت المرأة شابة جميلة ، ذات وجه شاحب يشيع فيه الحزن ، وعينين واسعتين وضاءتين ، وشعر قاتم الصفرة .. وقد تولت تقديم زوجها الى « جان » ، فاذا مسيو « دوفورفيى » رجل فارع القامة ، احمر الشاربين ..**

وكانت السيدة تتحدث فى غير كلفة ، وفى لهجة عادية وان كانت بالغة الاتزان والرقة ، حتى لقد فتنت بها « جان » وأحبتها لفورها .. وقالت السيدة : « لقد قابلنا زوجك عدة مرات ، وسمعنا منه انك كنت متوعكة ، ومن ثم رأينا أن

لانرجىء زيارتنا اكثر مما فعلنا • ولقد جئنا ـ كما ترين ـ على الجياد ، دون ماكلفة •• وقد حظينا بزيارة من أمك والبارون منذ فترة •• »

وحدثت « جان » نفسها قائلة : « هاهى ذى صديقة تؤنس وحشتى •• »

وكان الكونت « دوفورفيى » على النقيض من زوجته ، فقد بدا متضايقا فى قاعة الاستقبال ، كارها للبقاء •• وما أن جلسوا حتى وضع قبعته على مقعد بجواره • وبعد أن تشاغل بالعبث بأصابعه بضع دقائق ، عقد يديه وكأنه يصلى •• **ثم أقبل « جوليان » اذ ذاك ، وقد بدا أنيقا وسيما الى درجة لم تعهدها فيه « جان » منذ زمن !•• كان حليق الذقن ، أنيق الملابس ، يلفه ذلك البهاء الذى كان عليه قبل زواجهما •• وصافح الكونت ، وقبل يد الكونتة ، التى تضرج وجهها بعض الشىء !•• كان قد تغير تماما ، اذ استرد بشاشته القديمة ، وعادت عيناه الواسعتان المتألقتان تشعان حبا وحنانا من جديد •• وصار شعره ـ الذى كان منذ قليل مشعثا ـ ناعما ، لامعا ••**

وعندما هم آل « دوفورفيى » بالرحيل ، قالت الكونتة لجوليان : « هل تشاركنى نزهتى على الخيل يوم الخميس ياعزيزى الفيكونت ؟ »

فانحنى جوليان قائلا : « سيكون هذا من دواعى اغتباطى ياسيدتى »

وتناولت الكونتة يد « جان » بين راحتيها ، وقالت فى ابتسامة عذبة : « لسوف نقوم ثلاثتنا بنزهات طويلة على الخيل حين تتحسن صحتك •• وستكون نزهات بديعة ! » •• ثم التقطت عنان الجواد ، وقفزت بخفة الى سرجه ، بينما تبعها زوجها على جواده النورماندى الكبير ، بعد أن انحنى فى شىء من الارتباك •• واذ اختفيا عن البصر ، قال جوليان لجان :

« يالهما من ساحرين !٠٠ انهما الطراز الذى يجدر بالمرء أن يكون على معرفة به »

ـ ان الكونتة الشابة لطيفة ، وأشعر بأننى سأحبها ٠٠ أما زوجها فيبدو ثقيل الظل ٠٠ أين قابلتهما ؟

وكانت « جان » سعيدة ، وان لم تدر لذلك سببا ٠٠وأجاب « جوليان » وهو يفرك يديه : **«قابلتهما لدى أسرة«دوبريزفيل» ٠٠ والزوج صياد لايبارى ٠٠ ومع أنه جاف بعض الشىء ، الا أنه نبيل حقا »**

وكانا مبتهجين حين جلسا الى العشاء ، وكأنما غشيت حياتهما سعادة مفاجئة !

★ ★ ★

◆ **ولم** يحدث بعد ذلك مايستحق الذكر حتى نهاية شهر يوليو ٠ ففى ذات مساء ، كان الزوجان يجلسان تحت شجرة، حيث أقيمت مائدة من جذوع الاشجار ، استوت عليها زجاجة « كونياك » أمام « جوليان » ٠٠ **وفجأة ، صرخت « جان » واشتد شحوب وجهها ٠٠ وجرى فى كيانها ألم حاد ، لم يلبث أن أعقبه بعد دقائق ألم آخر أطول استمرارا من الأول ٠ وعاونها زوجها وأبوها حتى بلغت حجرتها فى عناء شديد ، وهى لا تتمالك نفسها من الأنين والتخاذل ، وكأنها عاجزة عن تحمل ثقل جسمها الفادح** ٠٠ ولم يكن موعد الوضع الطبيعى قد حان ، فخشوا أن يكون ثمة مكروه ، ولذلكأوفدوا سيمون العجوز لاستدعاء الطبيب ، فوصل عند منتصفالليل، وأدرك لأول وهلة حقيقة الامر ، فأمر بأن تلزم «جان»فراشها ٠٠ وكان الألم قد خف نوعا ما ، بيد أن ثمة انقباضا عنيفا ملأ نفسها كأنه نذير الموت ٠٠ وامتلأت الحجرة بالقوم ٠٠ كانت البارونة فى مقعد وثير تتنفس بصعوبة ٠٠ وفقدالبارون صوابه ، فأخذ يتنقل من مكان الى آخر ، ويحضر أشياء مختلفة لم تكن هناك حاجة اليها ٠٠ ويستشير الطبيب فى كلدقيقة

.. أما « جوليان » فراح يذرع الحجرة هادىء النفس ، رغم عبوسه ..

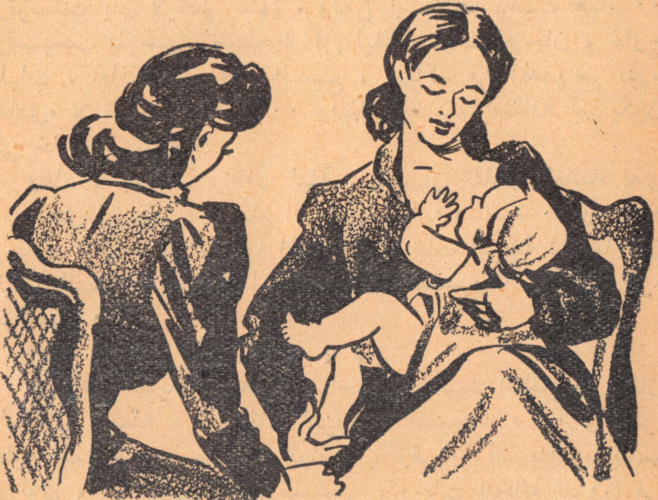
ووقفت عند ذيل السرير أرملة « دنتو » ، ووجهها خال من أية امارة توحى بما كان يخالجها ، كأن لم يكن ثمة مايثير مشاعرها . كانت ممرضة ، ومولدة ، وموكلة بالعناية بالموتى ، فى آن واحد !.. كانت تتلقى الوليد بين ذراعيها ، وتسمع صرخته الاولى ، وتغسله ، وتهدهده ، بنفس الشعور غير المكترث الذى كانت تبديه حين يحتضر امرؤ فتخف لتسمع آخر كلماته ، وتتلقى آخر أنفاسه .. اذ كانت هى التى تعد الموتى للدفن ، وتسهر على جثثهم ليلة أثر ليلة .. وانزوت لوديفين – الطاهية – والخالة ليزون فى أحد الاركان ، وقد لاذتا بالصمت

وأخذت « جان » تئن بين وقت وآخر .. وقبيل طلوع النهار ، غشيها ألم فظيع ، فتذكرت حال « روزالى » التى لم تكن تعانى أى ألم قبل أن يواتيها المخاض ، والتى انزلت طفلها الحرام الى الدنيا دون ماجهد !.. واذ قارنت «جان» بين نفسها و «روزالى » ، راحت – بتأثير وطأة آلامها – تسب الله الذى كانت من قبل « تظنه عادلا » !.. وتلعن القدرالظالم الذى جعلها تتألم .. وكانت الأوجاع تشتد بها أحيانا حتى تشل تفكيرها وتفقدها كل احساس ، فلا تجد من القوة حتى ماتستجيب به للألم !.. وكانت ، اذا خفت آلامها واستردت احساسها لبضع دقائق ، لا تقوى على أن تحول عينيها عن « جوليان » .. وأفعم قلبها أسى حين استعادت فى ذهنها تصرفه يوم وضعت « روزالى » طفلها .. **تذكرت نظراته ، وحركاته .. وهاهى ذى تشهد على وجهه نفس أمارات التبرم ، وعدم الاكتراث ! . . ذلك الانفعال القلق ، وتلك الأنانية .. مظهر الرجل الذى يحس بعبء جديد يهبط على كتفيه !..** وفجأة ، استبدت بها نوبات عنيفة من الألم ، فحدثت نفسها:

« انني أموت ! » ، واذ ذاك تملكها حقد متأجج على هذا الرجل، ورغبة جامحة فى أن تلعنه ، وأن تلعن الطفل المجهول الذى يكاد يقتلها ! ٠٠ وجاهدت في استماتة لبضع دقائق ، ثم كف الالم ٠٠ وزالت أوجاعها ٠٠

وكان الطبيب والممرضة منحنيين فوقها ، فشاهدتهما يتناولان شيئا ٠ ٠ثم سمعت عين الصرخة الشاكية التى سمعتها مرة من قبل ٠٠ فملأت قلبها ، وروحها ، وكل كيانها، اشراقا غريبا ٠٠ وبسطت ذراعيها بحركة غريزية ، وقد أفعم نفسها شعور من الدعة والفرح ٠٠ **كانت سعيدة ٠٠أواه، جد سعيدة !٠٠ لقد غدت أما !٠٠ وطلبت أن ترى وليدها ٠ لم يكن له شعر ، ولا أظافر ـ اذ ولد قبل موعده ـ ولكن فرحتها لم تعرف حدودا حين وضعوه بين أحضانها!٠٠وشعرت أنها نجت ٠٠ وانها لن تعرف الحزن بعد اليوم ٠٠ وان طفلها الصغير كان درعها ضد القنوط !**

٠٠ لن تكون لها بعد الآن سوى فكرة واحدة ٠٠ طفلها ! وأحبته فى تطرف ، وتهوس ،كان مردهما الى شعورها بأنها خدعت وأصيبت بخيبة أمل فى حبها !٠٠ وتمسكت بأن يكون مهد الطفل بقرب سريرها دائما ٠ وكانت حين تقوى على النهوض ، تجلس ساعات تهز هذا المهد ٠٠ وأصبحت تغار من المرضعة ، فاذا بكى الصغير طلبا للثدى ، تولتها رغبة مجنونة فى أن تنتزعه وتقصيه عن المرضعة ، وأن تمزق ثدى هذه الفلاحة بأظافرها !٠٠ وكانت تصر على أن تصنع بنفسها كل قطعة من ثياب الطفل ، وتطرز له الملابس الجميلة ، حتى أصبح صوانه زاخرا بالأشرطة وقطع « الدنتيلا » ٠٠ ولم تكن تلقى بالا الى ما يقال حولها ، لكنها كانت لا تفتأ تقطع على القوم حديثهم لتدعوهم الى ابداء اعجابهم بقلنسوة جديدة للصغير، أو مرولة بديعة ، أو شريط ٠٠ وكانت تتحسس كل قطعة



فى شغف ، وترفعها فى اعجاب وزهو قائلة : « ما أجمله حين يلبس هذه ! »

وكان البارون والبارونة يبتسمان عندئذ فى حنان ..

أما « جوليان » ـ الذى اضطربت عاداته فى الحياة ، والذى بدأ يغار ، دون أن يفطن ، من الطفل الذى احتل مكانه فى السيادة على البيت ـ فقد أخذ يكرر بصبر نافد وغضب : « ما أشد ماتثيره من ازعاج بطفلها ! »

وأصبحت «جان » شديدة الكلف بطفلها ، حتى لقد صارت تقضى لياليها جميعا الى جوار مهده ، تتأمله وهو نائم مضحية بأوقات راحتها .. حتى ضعفت صحتها ، واشتد هزالها ، وأخذت تسعل باستمرار ، فأمر الطبيب بأن ينقل الطفل الى غرفة المرضعة فى كل ليلة .. وبكت «جان» ،

وتوسلت بأن لايقصى عنها ، ولكن توسلاتها ذهبت هباء ٠٠ وأصبحت المرضعة تصطحبه كل ليلة ، فتقف « جان » خارج الباب ، حافية ، مرهفة السمع ، لتتأكد من انه ينعم بنوم هادىء لا تشوبه شائبة ٠٠ والقلق يضنيها مخافة أن يكون فى حاجة الى شىء !

وعاد « جوليان » ذات ليلة ، بعد أن تناول العشاء لدى آل « دى فورفيى » ، فبلغ الدار فى ساعة متأخرة ٠٠ واذ ذاك وجد « جان » فى وقفتها المعتادة أمام باب المربية ! فلما كان اليوم التالى ، حبسوها فى غرفتها ليقسروها على أن تلزم فراشها ٠٠

* * *

◆ **وفى** نهاية أغسطس ، احتفل بتعميد الطفل ٠ وكان البارون أشبينه » ، والخالة ليزون « اشبينته » ٠٠ وأطلقوا عليه اسم « بيير سيمون بول » ، وقرروا أن ينادوه باسم « بول » ٠٠ وفى أوائل سبتمبر ، رحلت الخالة ليزون فى صمت وسكون كما جاءت ٠٠

وذات ليلة أقبل القس بعد موعد العشاء ، بادى الارتباك وكأن فى ذهنه شيئا ما !٠٠ وبعد عدة محاولات غير مجدية للتمهيد للموضوع ، طلب الى البارونة والبارون أن يسمحا له بالحديث معهما فى خلوة لبضع دقائق ، فخرج ثلاثتهم من الدار ، وراحوا يذرعون فى تؤدة طريق أشجار « الحور » جيئة وذهابا ، ويتحدثون فى عبارات سريعة ، بينما كان « جوليان » يسائل نفسه ـ فى شك وقلق ـ عما بينهم من أسرار ! ٠٠ وعندما آن للقس أن ينصرف ، أصر « جوليان » على أن يصحبه الى مسكنه ٠٠

وكانت البرودة لاذعة ، فدخلت الاسرة الى القصر ٠٠ وعندما عاد « جوليان » ، وجدهم قد أسلموا أنفسهم الى اغفاءة ـ وهم فى مقاعدهم ـ **فوقف فى فراغ الباب محتقن الوجه ،**

غاضبا ٠٠ ولم يتريث ليتبين ما اذا كانت « جان » موجودة بالغرفة ، بل صرخ فى حميه وحماته : « لا بد انكما مخبولان اذ تمنحان تلك الفتاة عشرين ألفا من الفرنكات » !

وذهلوا جميعا ، فلم ينبسوا ببنت شفة ، بينما واصل « جوليان » صراخه بصوت أعلى من قبل : « لا بد انكما مجنونان ، مخرفان ! ٠٠ أتريدان أن تتركانا معدمين ؟ »

وحاول البارون ــ الذى استرد بعض جأشه ــ ان يسكته ، فهتف : « صه ! ٠٠ ان جان هنا »

فصاح جوليان مهتاجا : « وماذا يعنينى ؟٠٠ يجب أن تعرف كل شىء ٠٠ انها سرقة خسيسة ! »

وكانت « جان » تنقل بصرها من شخص الى آخر مبهوتة مشدوهة ، وهى تقول فى ارتباك : « فيم كل هذا ؟ »

فتحول « جوليان » اليها مفضيا بالخطة التى وضعت لزواج « روزالى » ، ولتسجيل مزرعة « بارفيل » ــ التى كانت قيمتها تعادل عشرين ألفا من الفرنكات ــ باسم الطفل ، ابن الخادمة !٠٠ ثم أخذ يكرر : « ان أبويك مجنونان يا عزيزتى ٠٠ جنونا أهوج ! ٠ ٠عشرون ألفا من الفرنكات !٠٠ عشرون ألفا من الفرنكات لطفل غير شرعى ٠٠ ابن حرام ؟! ٠٠ لقد فقدا عقليهما تماما ! »

وانصتت « جان » هادئة ، ساكنة ، مذهولة ، غير حافلة بشىء ــ ما دام لا يمس طفلها ! ــ بينما انفجر « البارون » يصيح ، وهو يدق الارض بقدمه : « اكبح جماح أعصابك ٠٠ انه لأمر مثير حقا ! ٠٠ ذنب من هذا الذى اضطرنا الى أن نعنى بهذه الفتاة ؟٠٠ طفل من هو ؟٠٠ ومع ذلك تريد ان تهجره وتنبذه !٠٠ شيئا من الخجل ! »

وبهت « جوليان » لثورة البارون ، وأجفل ٠ ثم عاد يقول فى لهجة هادئة : « ان ألفا وخمسمائة فرنك تكفى ٠٠ كل فتيات المنطقة يرزقن أطفالا قبل زواجهن ، ولا يعنى أحد

بالتحرى عن والد أى طفل تنجبه احداهن ، بل ان مجرد منحكما اياها صداقا (دوطة) كفيل بأن يثير شكوك الناس ٠٠ كان ينبغى أن تفكرا فى سمعتنا ، ومكانتنا ، على الأقل »

وكان يتكلم فى قوة ، شأن رجل واثق من نفسه ، ملم تماما بما يتحدث عنه !٠٠ فأفحم البارون ، ولم يجد ما يقوله ازاء حجة كهذه ، فأسرع « جوليان » **يستغل** موقفه قائلا : « من حسن الحظ ان شيئا لم ينفذ بعد ، وأنا أعرف الرجل الذى يرغب فى الزواج من « روزالى » ، وهو رجل طيب ، ومن الممكن تسوية كل شىء معه على وضع معقول ٠٠ لسوف أقابله وأدبر الأمر ٠٠ »

وأسرع يغادر الغرفة خشية أن يتجدد الجدل ، مستغلا صمت الجميع ليعتبره قبولا ورضى بوجهة نظره !٠٠ وما ان اختفى ، حتى استرد البارون جأشه ، فصاح : « اواه !٠٠ هذا أكثر مما ينبغى ! » ٠٠ فتأملت « جان » وجه أبيها المربد ، وانفجرت مقهقهة بتلك الضحكة الصافية التى كانت تنبعث منها فى الماضى كلما سمعت حديثا مضحكا ٠٠ ثم قالت : « أسمعت كيف نطق (عشرين ألفا من الفرنكات) يا أبى ؟ »

وكانت البارونة سريعة الاستجابة للضحك ، قدر ما كانت للبكاء ، فاشتركت مع « جان » وضجت بالضحك اذ تذكرت وجه زوج ابنتها الغاضب ، وكلماته وحركاته العنيفة ، واصراره على ان لا تمنح الفتاة التى أغواها من مال ليس له فيه شىء !٠٠ وأسعد الام ما بدا على « جان » من مرح ، فظلت تضحك حتى انسابت الدموع على خديها ٠٠ كما اشترك البارون بدوره معهما ، فراح ثلاثتهم فى ضحك هنىء ، متناسين كل شىء آخر ـ كما اعتادوا فى أيامهم السالفة السعيدة ـ وعندما هدأ ضحكهم فى النهاية قالت « جان » :

ـ أليس من الغريب اننى لم أعد أتأثر لشىء ؟٠٠ انه

يبدو لى كغريب عنى ، فلست أستطيع أن أتصور اننى زوجته ٠٠ ألا تريان كيف أضحك من وقاحته ؟! »

وتبادل ثلاثتهم القبل فى حنان ، وهم ما زالوا يبتسمون

* * *

◆ **وبينما** كان جوليـان خارجا فى نزهتـه المعتادة على جواده ، بعد يومين ، اذا بشاب طويل ، عريض المنكبين ، فى نحو الخامسة والعشرين من عمره - يرتدى صدارا أزرق جديدا مما اعتاد الفلاحون أن يلبسوه -. يتسلل فى حذر ، وكأنما كان فى ارتقاب هذه الفرصة منذ الصباح ٠٠ فسار الى سياج مزرعة « كويار » ، ثم دلف فى النهاية بعد دورة طويلة الى قرب الشجرة التى كان البارون والمرأتان لا يزالون جلوسا تحتها ، فرفع قبعته وانحنى فى ارتباك ، حتى اذا ازداد اقترابا ، قال متلعثما : « أنا ديزيريه ليكوك »

ولم يوح اليهم الاسم بشىء ، فسأله البارون : « وما الذى تبغيه ؟ »

واذ أحس الفلاح بضرورة الايضاح ، ازداد ارتباكا ، وأخذ يلوى قبعته بين يديه ، ثم قال فى النهاية : « لقد حدثنى الاب المبجل عن تلك المسألة ٠٠ » ، وأمسك عن المضى فى الكلام ، خشية ان يسجل على نفسه شيئا ، فقال البارون الذى لم يفهم من الأمر شيئا : « أية مسألة ؟٠٠ عم تتكلم ؟ »

وعقد الفلاح عزمه أخيرا على الايضاح ، فقال فى صوت خفيض : « أقصد مسألة روزالى ! »

وكانت « جان » قد حدست ذلك ، فبادرت الى مغادرة المكان وطفلها بين ذراعيها ٠ واذ ذاك أشار البارون الى المقعد الذى أخلته وقال : « تعال هنا » ٠٠ فجلس الفلاح متمتما فى حياء : « هذا كرم منكم » ٠ ثم سكت ، كأن لم يعد لديه ما يقوله ! وبعد فترة صمت طويلة ، تطلع الى السماء ، وقال : « اننا نحظى بجو أجمل مما يتوقع فى مثل هذا الوقت من

العام . سيكون هذا فى صالح المحصول » .. ثم ركن الى الصمت ثانية !

وازداد ضجر البارون ، فقال فى صراحة : « اذن فأنت على استعداد للزواج من روزالى ؟ »

فأجفل الفلاح لهذه الصراحة ، كمن خشى أن يقيد نفسه بشىء ، وأجاب بالمراوغة المأثورة عن فـلاحى نورماندى : « ربما كان الجواب : نعم ، وربما كان : لا .. الامر يتوقف .. » .. فقال البارون وقد أثارته مراوغة الفلاح : « ويحك ! أجب .. هل تأخذها ؟.. نعم ، أولا ؟ »

وتولت الرجل الحيرة ، وأخذ يحملق فى قدميه ، ثم قال : « اذا حصلت على ما وعد به الاب المبجل ، أخذتها .. أما اذا كنت لا أنال سوى ما قال به السيد جوليان ، فلن أقبل ! »

ـ وماذا قال السيد جوليان ؟

ـ قال السيد جوليان آنني سأحصل على ألف وخمسمائة فرنك .. وقال الاب المبجل اننى سأحصل على عشرين ألفا من الفرنكات .. لسوف أقبلها لقاء عشرين ألفا .. وليس لقاء ألف وخمسمائة !

وكانت البارونة جد مذهولة لمكر الفلاح ، فأفلتت منها ضحكة حاولت ان تكبحها .. وساء الفلاح ذلك ـ فهو لم يكن يرى داعيا لضحكها ! ـ فرمقها بنظرة حاقدة من طرف عينه .. وقال البارون فى لهجة من يحسم الأمر ، اذ لم ترق له المساومة : « لقد قلت للاب المبجل اننى سأعطيك مزرعة « برافيل » لتستغلها أثناء حياتك ، على أن تؤول للطفل بعـد موتك ، ولست ممن يرجعـون عن وعودهم . وآلمزرعة تساوى عشرين ألفا من الفرنكات ، فهل تقبل أو لا تقبل ؟ »

فتهلل وجه الفلاح فى ضـعة ، وتحول فجأة الى ثرثار : « أواه ! .. اذا كان الأمر كذلك فلن أقول لا . لقد كنت ـ حين كلمنى الاب المبجل ـ على أتم استعداد ، وقلت لنفسى :

« سيرضى هذا سيادة البارون ، فى حين اننى لن أخسر شيئا من وراء ذلك » .. على ان السيد جوليان - حين جاءنى - لم يبد رغبة فى أن يعطينى سوى ألف وخمسمائة ، فقلت لنفسى : « يحسن أن تتبين جلية الأمر » ، لا لأننى كنت ضعيف الثقة ، وانما لاننى وددت أن أعرف .. فالعمل عمل يا صاحب السيادة ! » .. فقاطعه البارون قائلا : « ومتى تكون على استعداد للزواج ؟ »

فعاد الفلاح الى خجله وحيائه وارتباكه ، وقال فى تردد : « الا نكتب بيننا وثيقة أولا ؟ »

وعندئذ أفلت من البارون زمام أعصابه ، وصاح منفعلا : « يا للعنة ! .. ستكون لديك وثيقة الزواج ، وهى خير وثيقة فى يدك » .. بيد ان الفلاح أصر على ان يسأله : « أجل، ولكنى مع ذلك أحب أن أسجل الاتفاق ، وليس فى هذا من ضير »

فنهض البارون قائلا : « اسمع ، أجب بنعم أو لا فورا . اذا لم تكن راغبا فى القبول ، فصارحنى ، لأن لدى خطيبا آخر لها »

وخشى النورماندى الماكر خطر المزاحمة فبسط يده للبارون كعادة القوم حين يبرمون صفقة ، وقال : « هذه يدى .. لقد اتفقنا ! »

فصافحه البارون وصاح بالطاهية : « لوديفين .. احضرى لنا زجاجة نبيذ »

واحضرت المرأة النبيذ ، فشربا نخب الزواج المرتقب ، ثم رحل الفلاح مغتبطا ..

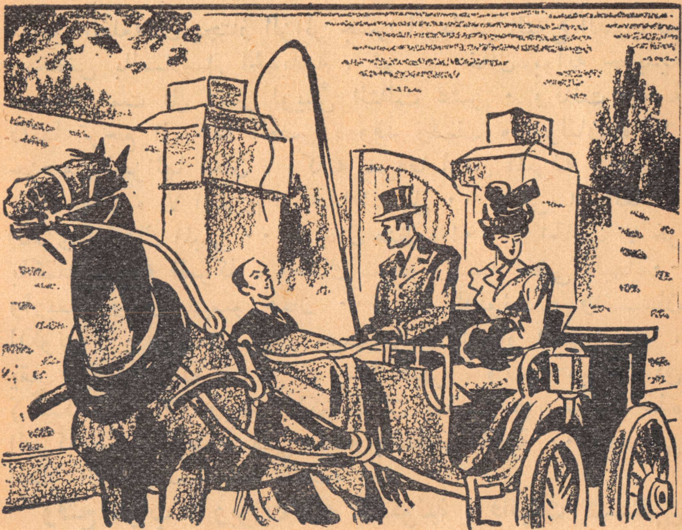
★ ★ ★

◆ **ولم** يذكر لجوليان شىء عن الأمر ، بل أبرم العقد سرا ! وفى صباح يوم الاثنين من أحد الاسابيع ، تم الزواج . **وحملت أحدى الجارات الطفل وراء العروسين ، كرمز أكيد**

للرخاء !٠٠ ولم يدهش أحد ، بل انهم غبطوا « ليكوك » على حظه الحسن ٠ وقالوا وهم يتغامزون فى مكر لا يشوبه خبث : « لقد ولد محظوظا ! »

٠٠ وحين علم جوليان ـ بعد أيام ـ بما جرى ، قامت مشاجرة عنيفة ، عجلت برحيل البارون والبارونة ! ولم تكن « جان » حزينة لسفر والديها فى هذه المرة ، حزنها فى المرات السابقة ، فقد أصبح « بول » مصدرا دائما لسعادتها ٠٠ بل انه غدا فى الواقع قبلة حياتها الوحيدة





الفصل التاسع

◆ **واستردت** « جان » صحتهـــا بمرور الايام ، فاقترح « جوليان » أن يردا للزوجين « دى فورفيى » زيارتهما ، وأن يزورا مركيز « دى كوتلييه » كذلك ٠٠ وكان « جوليان » قد اشترى فى احدى حلقات المزايدة عربة لا تحتاج الى غير جواد واحد ! ٠٠ وفى صباح يوم صحو من أيام ديسمبر ، شد الجواد الذى جمع لونه بين الحمرة والسواد ، الى العربة الجديدة ، وانطلقت « جان » و « جوليان » فى طريقهما الى منزل آل « دى فورفيى » ٠ وكانت قلعة « لا فريليت » محوطة ـ من أحد جانبيها ـ ببركة كبيرة لتربية الاسماك ، ومن الجانب الآخر بغابات صنوبرية ٠ وكان من الضرورى لبلوغ

مدخل القلعة أن يجتاز الزائر جسرا أثريا من النوع الذى يرفع ويخفض بالسلاسل الحديدية ، ثم يمر خلال بوابة حديدية ضخمة تمت الى عصر لويس الثالث عشر . وكانت القلعة ذاتها ترجع الى هذا العصر ، وقد وصف « جوليان » كل جزء من أجزائها لجان ، وكأنه يعرفها أوثق المعرفة ..ومضى يقول لها : « الا انظرى الى هذا المدخل .. ألا ترينه رائعا ؟. انظرى الى ذاك المبنى .. يا لجلال منظره !.. ان الجانب الآخر بأكمله يواجه البركة ، وهناك شرفة واسعة تفضى اليها .. وأربعة زوارق ترسو هناك .. اثنان للكونت ، واثنـــان للكونتة .. والى اليمين ، حيث ترين أشجار الحور تلك ، يقع طرف البركة ، ومن ثم يبدأ النهر ، ويتجه مباشرة الى (فيكامب) .. ويحب الكونت أن يمارس على صفحة هذه البركة صيد البط ، فهى مليئة بالطيور المائية .. هذه هى الدار التى تسمى حقا بالقلعة ! »

وفتح الباب ، وبرزت منه الكونتة ، فأقبلت تستقبل الزائرين وقد بدت فى ثوب ذى ذيل يظهر جمال قوامهـــا المشوق ، ويضفى عليها مهابة وجلالا .. كانت تبدو خير صورة للاطار الرائع الذى كان يحيط بها !.. وتقدمتهما الى قاعة الاستقبال ، فاذا بها قاعة هائلة ، ذات ثمانى نوافذ، تطل أربع منها على البركة ..

وأمسكت الكونتة بيد « جان » وكأنها كانت تعرفها طيلة عمرها ، ودعتها الى الجلوس ، ثم جلست قريبة منها على مقعد منخفض . وكان جوليان ـ الذى استرد خلال الاشهر الخمسة الاخيرة بشاشته ومرحه ـ يبتسم ويتكلم فى انطلاق وغير كلفة . وأخذ والكونتة يتحدثان عن جولاتهما على صهوتى جواديهما ، فكانت هى تســخر من ركوبه ، داعية اياه بـ « الفارس المتعثر » ، بينما كان هو يسميها بـ « ملكة القنطروس » ، اشارة الى ذلك الحيوان الخرافى الذى كان

الاغريق يرسمونه على شكل حصان اوتى رأس انسان وصدره ..

وتردد صوت مقذوف نارى تحت النوافذ ، واذا الكونت يصطاد ، فنادته زوجته ، وسرعان ماسمعوا صوت مجذافين يضربان فى الماء ، ثم صوت قارب يرتطم فى رفق بالجدار الحجرى .. ومالبث الكونت آن ظهر ، يتبعه كلبان يقطر جسماهما ماء ، وقد لوحتهما السمرة مثله ، فتمددا على الحصير عند عتبة الباب .. ولاح الكونت فى داره أكثر بشاشة مما كان أثناء زيارته لقصر أشجار الحور ، فأبدى سروره لمرأى «جان» و « جوليان » ، وأمر بتغذية المدفأة بمزيد من الخشب ، وبأن يحمل اليهما نبيذ وكعك .. ومالبث أن هتف فجأة : « لسوف تتناولان العشاء معنا بالطبع ؟ » .. وأبدت جان ـ التى لم تنس طفلها لحظة ـ تمنعا ، بيد ان الكونت ألح ، فلما أصرت فى عناد ، أشار اليها جوليان بصبر نافد ، فقبلت فى آخر الامر خشية ان تثير طبعه الشرس البغيض ، وان ظلت قلقة متبرمة لانها لن تستطيع أن ترى « بول » حتى الصباح التالى !

وقضوا وقتا بهيجا ، فزاروا عيون الماء .. ثم مضوا الى نزهة فى البركة ، وقد تولى الكونت التجذيف ، وكلباه يحفان به فى مجلسه ، وقد رفعا أنفيهما فى الهواء . وجلست «جان» وحيدة ، تغمس يديها فى الماء من آن الى آخر ، متلذذة بالقشعريرة التى كانت تسرى فى بدنها حين تلمس الماء البارد . **أما «جوليان» والكونتة ، فقد جلسا فى المقعد الخلفى ، يبسم كل فى وجه صاحبه ، تلك الابتسامة التى تنم عن خلو بال وعدم احتفال بالايام .. ابتسامة أولئك الذين يحسون انهم فى أوج السعادة .. وما لبث الغسق أن اقترب ، وراحت الشمس تنحدر بسرعة خلف اشجار الصنوبر العملاقة .. وكانت حمرة السماء تبعث فى المرء شعورا بالقر !**

وعادوا الى قاعة الاستقبال ، حيث وجـدوا نارا كبيرة مستعرة ، ترسل دفئا كافيا جعلهم يشعرون جميعا بغبطة ناعمة ٠٠ وأمسك الكونت ـ اذ أحس بالسعادة ـ بزوجته بين ذراعيه القويتين ، فرفعها كطفل صغير ، وطبع على وجنتيها قبلتين تردد لهما صوت ! ٠٠ وابتسمت « جان »لهذا العملاق الضخم الطيب القلب الذى يصفه الجميع « بثقل الدم » ، وقالت لنفسها : « ما أكثر ما نخطىء ! » ٠٠ والتفتتعفوانحو « جوليان » ، فبهتت لما بدا على أساريره : كان يقف فى المدخل مفرط الشحوب ، يحملق فى الكونت ، فسألته جان : «أمريض أنت ؟ ٠٠ ماذا دهاك ؟ »

وأجاب محنقا : « لا شىء ٠٠ لقد أصبت ببرد ، فدعينى وشأنى »

واذ انتقلوا الى قاعة المائدة ، استأذن الكونت فى أن يصحب كلبيه اللذين استلقيـا الى جانبيه يبصبصان بذيلهما فى ابتهاج ، ويزمجران فى رضى ٠٠ وكان الكونت يلقى اليهما بقطع من اللحم بين فترة وأخرى ، ويربت آذانهما الحريرية الملمس !

وعندما تهيأت « جان » و «جوليان» للانصراف بعد العشاء، سألهما الكونت «دى فورفيى» أن يبقيا فترة أخرى ، ليشاهداه وهو يصطاد السمك على ضوء المشعل ٠ وتركهما فى الشرفة مع زوجته واستقل احد القوارب ، يتبعه خادم يحمل شبكة صيد ومشعلا ٠٠ وألقى ضوء المشعل ظلالا غريبة علىالاشجار، وبدا الكونت وهو واقف فىالقارب، أشبه بمارد جبار ٠وحين رفع الشبكة التى كانت بين يديه ، بدت ذراعاه كأنما كانتا تتطاولان الى النجوم ٠٠ ثم أنزلهما فسمع الثلاثة الذين كانوا فى الشرفة صوت إرتطام بالماء ، وعاد ظله يتراءى منعكسا على

جدار القلعة ·· ومالبث أن صاح قائلا : « لقد أمسكت بثمان ياجيلبرت » ·· وان هى الا لحظة حتى أقبل يصعد الدرجات – والخادم يتبعه حاملا المشعل – وألقى شبكته على أرض الشرفة

وفى النهاية استأذنت جان وجوليان فى الانصراف ، بعد أن تدثرا بأغطية أعارهما اياها صديقاهما ·

وقالت «جان» لجوليان بعد خروجهما : «ياله من طيب لطيف ·· هذا العملاق ! » ·· فأجاب جوليان : « أجل ، ولكنه لايعرف كيف يحسن التصرف أمام من يكونون فى مجلسه ! »

* * *

◆ **وذهبا** بعد أسبوع لزيارة أسرة « دى كوتلييه » آلتى كانت تعتبر أعرق أسرة فى الريف · وكانت قلعة الاسرة الجديدة في « رميفيلى » قد شيدت فى أثناء حكم لويس الرابع عشر ، في أحضان متنزه رائع محوط بأسوار حجرية ·· بينما كانت أطلال القلعة القديمة فوق التل · وأوصل خادم – فى ثياب رسمية خاصة – الضيفين الى قاعة فسيحة ، فخمة ، تتوسطها قاعدة استوت عليها آنية هائلة من « السيفر » · وفى قاع هذه الآنية كان ثمة آطار يضم خطابا بتوقيع الملك ، يتوجه فيه العاهل الى المركيز « ليوبولد – هرفيه – جوزيف – جيرميه دى فارنفيى دى رولبوسك دى كوتلييه » ، راجيا منه أن يتقبل الآنية هدية منه !

وكانت «جان» و « جوليان» يتأملان هذه الهدية الملكية فى اعجاب ، حين ولج القاعة المركيز وزوجته ·· وكانت المساحيق تنتثر على شعر المركيزة – جريا على ماكان علية القوم يتبعونه فى الزينة اذ ذاك – **ومالبثت بشاشة المركيزة أن أصبحت اصطناعا فاترا ، وبدا مسلكها زريا تحت تأثير غطرستها وماكان يتولاها من رغبة فى أن يكون كل ماتبديه**

« مآثر » تتكرم بها على الغير ! ٠٠ أما المركيز فكان بدينا ، ذا شعر أبيض ينتصب ثائرا فوق رأسه ٠ وكان صوته، وحركاته ، بل مسلكه كله في الواقع ، يفيض بالصلف والخيلاء ، وكأنه يبغي أن يشعر زائريه بمدى مكانته وأهميته !٠٠ وبالاختصار فقد كان الزوجان من عبيد «الاتيكيت» ـ قواعد السلوك ـ يسير تفكيرهما وأعمالهما كلها وفقا للأصول السليمة ، فى تزمت بالغ !٠٠ وكانا يمضيان في الحديث دون أن ينتظرا جوابا ٠٠ ويبتسمان بحركة آلية، وكأنهما يؤديان واجبا تحتمه عليهما مكانتهما التى تضطرهما الى استقبال من يقلون عنهم فى الدرجة من أعيان الريف !

وحاولت « جان » و « جوليان » أن يلطفا من جو الزيارة جهدهما ، بيد أنهما كانا يستشعران حرجا منها ، خشية أن يمكثا أطول مما ينبغى ٠٠ ومع ذلك فقد ادركتهما الحيرة فلم يدريا كيف يستأذنان فى الانصراف ٠٠ على أن المركيزة لم تلبث أن أنهت بنفسها الزيارة ، وذلك بالتوقف عن الحديث فجأة ، كملكة تصرف رعيتها من حضرتها فى أدب !

وفى طريقهما الى دارهما ، قال جوليان : « اذا راقكفسوف نحد من زياراتنا لآل « دى كوتلييه » ٠٠ فانى أرى أن هذه الزيارة تكفى » ٠٠ ووافقته « جان » على رأيه ٠٠

* * *

◆ **وانقضى** شهر ديسمبر فى بطء شديد ٠٠ ومنيت «جان» بعين مامنيت به فى العام السابق من اضطرار الى ملازمة الدار، لكنها لم تستشعر وحدة فى هذه المرة ، اذ كان التفكير فى « بول » خير شاغل لها ٠٠ **وكان جوليان لايفتأ يبدى الاستياء والضيق كلما رأى الطفل ، سيما حين كانت « جان » تحمله أحيانا بين ذراعيها ، وتظل تقبله وتدلله بذلك الحنان المسرف الذى يجرف الامهات فى بعض الاوقات ، ثم تقربه الى جوليان**

قائلة : « لم لا تقبله ؟ ‥ لايبدو عليك انك تحبه ! » ‥ فكان جوليان ينحنى على كره شديد منه ، ويلمس جبهة الطفل بشفتيه ، وهو يحرص على ان يكون على مسافة منه ، كما لو كان يخشى أن يلمس جسمه يدى الصغير المضمومتين ‥ ثم لايلبث أن يبادر بعد ذلك بالانصراف ، وكأن منظر الطفل قد ملأ نفسه تقززا !

وكان العمدة ، والطبيب ، والقس ، يدعون الى العشاء فى الدار من وقت الى آخر ، وكذلك الزوجان « دى فورفيى » اللذان ازدادت علاقاتهما بجان وزوجها توثقا ٠ وكان الكونت « دى فورفيى » لايخفى حبه لبول ، فاذا جاء الى قصر شجر الحور ، حمل الصغير على ركبتيه طيلة الوقت فى بعض المرات ٠ وكان يتناوله برفق بين يديه كأنه يخشى أن تؤذيه يداه الضخمتان ‥ ويحك أنفه بشاربيه ، وقد يقبله أحيانا فى شغف ‥ فقد كان مبعث أساه دائما أن زواجه لم يثمر أطفالا !

وأقبل شهر مارس مشرقا ، صحوا ، يكاد يشبه الخريف ٠ وعادت الكونتة « جيلبيرت دى فورفيى » تتحدث عن الخروج فى نزهات طويلة على ظهور الخيل ، فبادرت «جان» الى الموافقة، اذ كان قد أمضها السأم من حياتها الرتيبة المتواترة ، ليل نهار ‥ وقضت أسبوعا بأكمله وهى سعيدة بالانهماك فى اعداد ثياب الركوب ، ثم بدأت النزهات ٠ وكانوا دائما ينطلقون فى فريقين ، كل اثنين معا : الكونتة وجوليان فى المقدمة ، والكونت وجان على بعد نحو ثلاثين مترا منهما ‥ وكان هذان الاخيران يندمجان فى الحديث كأنهما صديقان قديمان ٠ كانت نفس كل منهما ، الساذجة المستقيمة، تتجاوب مع نفس الآخر ، ولهذا توثقت صداقتهما ‥ **أما الآخران ، فكانا يتحدثان فى همس ، ويضحكان أحيانا فى غير قصد أو**

اعتدال ٠٠ ثم لا تلبث نظراتهما أن تلتقى ، وكأنها تحمل حديثا لا يقويان على الجهر به ، فيلكزان جواديهما ويركضان بعيدا ، كأنما مستهما رغبة جنونية في أن يختفيا عن الانظار! وكان صوت جيلبيرت ينبعث من بعد أحيانا منفعلا ، فيلتفت الكونت الى « جان » ويقول مبتسما : « ان زوجتى ليست دائما مرحة !٠ »

وذات مساء ، كانت الكونتة أشد انفعالا ـ أثناء العودة ـ مما كانت فى أى يوم ، حتى انها أهاجت مهرتها ، ثم كبحت جماحها فجأة ، فكرر جوليان النصح لها مرارا : « حذار بالله ! ٠٠ لسوف يجمح جوادك »

لكنها أجابت : « وماذا يهمنى ؟ ٠٠ لا شأن لك بى »

وبدت كلماتها واضحة ، جافة ، وهى تشق الهواء الراكد ٠ وتقهقرت المهرة المهتاجة ، وأزبدت ، فتملك القلق الكونت وصاح بزوجته : « انتبهى ياجيلبيرت ! »

لكن الكونتة تولاها العناد ، فألهبت المهرة بضربة قاسية بالسوط بين أذنيها ، فشبت الفرس الهائجة على ساقيها الخلفيتين ، ثم اندفعت فى الطريق بسرعة مروعة ٠٠ وانطلقت كالطائر بين المروج والحقول المحروثة ، وقد التصقت بها



الكونتة متشبثة ، حتى تعذر تمييز الراكبة عن الفرس ٠٠ وسمر « جوليان » لفرط الذعر ، وكأنما شل حراكه ، وراح يهتف فى خور : « سيدتى !٠٠ سيدتى ! »

وانحنى الكونت على جواده النورماندى الكبير ، وأخذ يستحثه بسوطه ومهمازيه ، ثم اندفع فى اثر زوجته حتى غاب عن البصر ٠٠ و «جان» ترقبه الى أن اختفى ٠٠ واذ ذاك، اقترب « جوليان » من « جان » وقال ساخطا : « انها اليوم مخبولة على ما أعتقد ! »

واقتفيا آثار صديقيهما ٠٠ وان هى الا خمس عشرة دقيقة، حتى رأياهما عائدين ، فانضما اليهما ٠٠ وكان الكونت متورد الوجه يتصبب عرقا ، لكنه كان يبدو سعيدا ، وأخذ يضحك فى ابتهاج وفوز وهو ممسك بعنان جواد زوجته بقبضة قوية ٠٠ **أما وجه « جيلبيرت » فكان شديد الامتقاع ، مكفهرا ، وقد مالت على كتف زوجها ، كأنها توشك أن تقع مغشيا عليها ٠ ومنذ ذلك اليوم ، أدركت « جان » أن الكونت كان مدلها فى هوى زوجته الى حد الجنون !**

وخلال الشهر التالى كانت الكونتة أكثر اشراقا مما بدت فى أى يوم مضى ٠٠ وكثر ترددها على قصر « الحور » ، حيث صارت ترى دواما مرحة ، ضاحكة ٠ وكانت عواطفها تفيض أحيانا ، فتقبل « جان » فجأة وكأنما غشيت حياتها سعادة غامضة !٠ ٠وكان زوجها لايكاد يحول بصره عنها ، سعيدا بسعادتها ، يحاول فى كل دقيقة أن يلمس يدها وثوبها ٠٠ وذات مساء ، قال لجان : « اننى الآن فى أوج السعادة ٠ قط لم تكن « جيلبيرت » هكذا ٠٠ أصبحت مكتملة الاتزان ، لا تنفعل قط ، ولم تعد تغضب ٠٠ لقد كنت مرتابا فى مدى حبها لى ، أما الآن فأصبحت أدرك كم تحبنى » !

وتغير حال جوليان هو الآخر ، فأصبح أكثر اشراقا ، وألطف مودة ، كما لو كانت الصداقة بين الاسرتين قد بثت فيه سعادة وسكينة ٠٠

* * *

◆ **وبدأ** الربيع مبكرا ، دافئا على غير المعتاد ، وأحست «جان» بأن عواطفها أصبحت مرهفة الى حد عجيب ٠٠ كانت أحيانا تشعر بالأسى يرين عليها لمجرد رؤية زهرة صغيرة ، فتقضى ساعات على هذه الحال ٠٠ **وملأت نفسها الذكريات الحلوة لايام حبها الاولى ، لا لأن حبها لجوليان قد تجدد - فقد ذهب هذا وانقضى الى الابد - ولكن لأن كيانها بأسره كان متأثرا بانفعال عجيب ، وكأنما استيقظ فى أعماقها شعور خفى حنـون ٠٠ وأصبحت تميل الى أن تخلو الى نفسـها ، وتستسلم لأشعة الشمس الدافئة ٠٠**

وذات صباح ، كانت مستغرقة فى أحلامها تلك ، حين مرت أمام عينيها صورة ٠٠ صورة تلك البقعة من الغابات القريبة من « اتريتا » حيث ازجى اليها الشاب الذى كان اذ ذاك يحبها، كلمات الهوى العذبة للمرة الأولى ٠٠ ففى تلك البقعة حلمت بالمستقبل المشرق ، وبتحقيق جميع آمالها ٠٠ وودت لو ترى هذه البقعة مرة أخرى ، كى تقوم بحج « عاطفى » اليها ،وكأنما كانت رؤيتها كفيلة بأن تبعث فى حياتها تغيرا جديدا !

وكان « جوليان » قد خرج منذ الصباح ، ولم تدر « جان » أين ذهب ٠٠ فأمرت بأن يسرج لها الجواد الابيض الصغير ، ثم انطلقت فى رحلتها ٠٠ وكان اليوم بديعا ، صافيا ، من تلك الايام التى تغشى فيها السكينة الاعشاب والاشجار وكل شىء ، كما لو كانت الطبيعة كلها نائمة ! ٠٠ ومضت « جان » وئيدا ، والجواد الابيض الصغير يسير على هواه ٠٠ كانت

سعيدة بأحلامها .. وهبطت الى الوادى المفضى الى البحر ، واجتازت القوس القائم بين التلال ، والذى يلقب باسم باب « اتريتا » ، ثم مضت فى الغابات لتلقى نظرة على البقعة التى كان قلبها يحن الى رؤيتها .. وضربت فى الممرات المتشابكة ، بيد أنها عجزت عن أن تجد البقعة .. وفجأة ، **لمحت على البعد - وهى تجتاز طريقا واسعة - جوادين مسرجين مربوطين الى شجرة . وعرفتهما على الفور .. كانا جوادى « جوليان » و « جيلبيرت » .. وكانت «جان» قد بدأت تضيق بوحدتها ، فطاب لها اللقاء غير المرتقب .. واستحثت جوادها متعجلة مقابلتهما .. حتى اذا بلغت البقعة التى كان الجوادان ينتظران فيها صابرين ، وكأنهما تعودا الانتظار طويلا ، نادت صاحبيها .. ولكنهما لم تتلق ردا . وكان ثمة قفازان نسائيان ، وسوطان ملقاة على الاعشاب ..**

وتمتمت لنفسها فى صوت هامس : « لا شك انهما كانا هنا ، ثم سارا قليلا على أقدامهما .. وانتظرت خمس عشرة دقيقة ، ثم عشرين ، وهى فى دهشة من غيابهما .. وكانت قد ترجلت عن جوادها ، واستندت الى شجرة .. وحلق عصفوران ثم اقتربا من المكان الذى كانت تقف فيه جامدة دون حركة ، حتى انهما لم يفطنا اليها ، فأخذ الذكر يحوم حول أليفته ، يحنو عليها ويشقشق مغردا .. وراقبتهما « جان » وهى تفكر : « لقد نسيت اننا .. فى الربيع ! »

واذ ذاك خامرتها فكرة .. نوع من الشك .. وعادت تنظر الى القفازين ، والى السوطين ، والى الجوادين المهجورين ، وفجأة ، قفزت على صهوة جوادها وانطلقت مبتعدة .. واستحثت جوادها فركض عائدا بها ، وهى تجهد ذهنها فى محاولة ربط الوقائع بعضها ببعض : **كيف لم تستطع أن تستنتج جلية الأمر قبل الآن ؟.. كيف عميت عن الحقيقة الى هذا الحد ؟..**

لماذا لم تحدس الباعث لجوليان على الخروج فى هذه النزهات الطويلة ، وما أخذ يزجيه لها فجأة من غزل ، وما يبديه من بشاشة ومودة وحسن طباع ؟٠٠ وتذكرت طباع « جيلبيرت » المتقلبة ، وفورات عواطفها المفاجئة ، وانفعالها الذى لا مبرر له ، ثم ذلك التغير المباغت الذى اعتراها أخيرا ٠٠ فأسعد زوجها !

وكبحت « جان » جوادها ، اذ كانت سرعته تضايقها وهى تريد أن تفكر ، وتفكر بامعان ! ٠٠ وبعد دقائق ، تمالكت جأشها ٠٠ لم يخامر قلبها شىء من الغيرة ، وانما كان كل ما داخله هو الاحتقار !٠٠ بل انها لم تفكر فى « جوليان » ، فما كان أى تصرف يقدم عليه ليثير دهشتها ، وانما أثارت نفسها خيانة الكونتة ، صديقتها ! ٠٠ أو ليس فى هذه الدنيا سوى الغدر ، والغش ؟!٠٠ على انها عقدت عزمها على أن تخفى مشاعرها ، وتوصد قلبها منذ اليوم دون أى انسان ، عدا « بول » وأبويها ٠٠ وكل ماعدا ذلك ، اعتزمت ان تتحمله فى هدوء ٠٠ وسكينة !

★ ★ ★

◆ **وما** أن بلغت الدار ، حتى حملت « بول » الى غرفتها ، وأخذت تقبله دون هوادة لساعة كاملة !٠٠ وأقبل « جوليان » فى موعد العشاء ، مفرط البشاشة ، بادى اللطف ٠٠ وسأل جان : « ألن يأتى أبواك هذا العام ؟ »

وحمدت له « جان » هذه الاشارة ، حتى أوشكت أن تنسى ما اكتشفته فى الغابات ! وغشيتها رغبة لا سبيل الى مقاومتها، فى أن ترى أبويها اللذين كانت تحبهما دون الناس أجمعين — عدا « بول » — فأنفقت الليل كله تكتب اليهما ، وتدعوهما الى أن يعجلا بالمجىء ٠٠



وحدد والداها اليوم العشرين من شهر مايو لوصولهما ، ولم يكن قد انصرم من الشهر سوى سبعة أيام ٠٠ وظلت « جان » تترقب مرور الوقت بفارغ الصبر ، لا لأنها كانت تتوق لرؤيتهما فحسب ، وانما لأنها كانت تشعر أيضا بالحاجة لأن تفتح قلبها لهما ، وأن تتحدث مرة أخرى مع قوم طيبين ، أشراف ، تخلو أعمالهم وأفكارهم ورغباتهم من الاثم ٠ وكانت قد تعلمت أن تخفى أحاسيسها الحقيقية ، وأن تحيى الكونتة فى ابتسام ، باسطة لها يديها ٠٠ وأصبح الشعور الذى يداخلها هو شعور الوحدة ، والفراغ الكامل ، والاحتقار التام لجميع الرجال ٠٠ **وقد أخذ هذا الشعور فى الازدياد يوما بعد يوم ، حتى اذا تناهت اليها الأقاويل والشائعات التى راجت فى المنطقة عن سلوك زوجها ، امتلأت نفسها اشمئزازا ! فلقد وضعت ابنة « كويار » طفلا ، ودبر لها زواج سريع ٠٠ وكذلك كان حال خادمة أسرة « مارتن » ، وفتاة من الجيران فى الخامسة عشرة ٠٠ وكذلك أرملة عرجاء فقيرة كانوا يلقبونها بـ « القذرة » لشدة قذارتها** ٠٠ وهكذا ، فى كل يوم كانت تترامى الى « جان » شائعة جديدة عن جوليان ! وكان الربيع

المبكر ، الدافىء ، يثير الناس ـ على مايبدو ـ كما يثير النبات ٠٠ وأحست « جان » ـ التى تحطم قلبها ، وتبلدت مشاعرها ، ولم تعد تملأ فطرتها العاطفية غير الاحلام ـ بأن هذه النزوات « الحيوانية » تضاعف اشمئزازها ٠٠ ولئن كانت قد احتقرت « جيلبيرت » ، فما كان هذا الاحتقار لانها سلبتها زوجها ، وانما لأن « السيدة الرفيعة » كانت تتقلب هى الاخرى فى الوحل !٠٠ فهى لم تكن ـ كما يدل مظهرها ـ من ذلك الصنف من النساء اللاتى تتملكهن الغرائز الوضيعة ، بل كانت ذات طابع مختلف ٠٠ فكيف تردت اذن كما تردت أولئك الوضيعات الجاهلات ؟

وفى اليوم الذى كانت تترقب فيه والديها ،أضاف«جوليان» الى مشاعرها قدرا آخر من الاشمئزاز ، حين أنبأها ضاحكا ـ كأنما كان يتحدث عن شىء عادى ـ **بأن الخباز سمع فى اليوم السابق ، ولم يكن من الأيام المخصصة لصنع الخبز ، ضجة داخل « الفرن » ، فتوقع أن يجد فيها قطة برية ، لكنه وجد بدلا من القطة ، زوجته ٠٠ « ولم تكن تصنع خبزا ! » ٠٠ واستطرد جوليان قائلا : « فبادر الخباز الى سد فتحة الفرن، حتى كاد العاشقان أن يختنقا ٠٠ لولا ان ابن الخباز الصغير كان قد رآهما وأسرع ينبه الجيران !٠٠ لكأنى بها احدى خرافات لافونتين !»**

* * *

◆ **عندما** وقفت العربة أمام الباب ، ورأت « جان » وجه أبيها خلال النافذة ، أحست بحب أبويها يجيش فى نفسها ، فى فورة لم تعرفها من قبل ٠٠ على أنها لم تكد ترى أمها حتى صدمت ٠٠ وأوشكت أن تقع مغشيا عليها !٠٠ كانت الأشهر الستة الاخيرة قد أضافت الى مظهر البارونةماتفعله عشر سنوات : كانت وجنتاها السمينتان المتهدلتان قدأصبحتا

محتقنتين ٠٠ وعيناها كئيبتين ٠٠ وأخذت تتنفس بعناء ، ولم تستطع أن تتحرك دون أن تجد من تعتمد عليه الى جانبيها ٠٠ كان من العسير على « جان » أن تنظر اليها وهى فى هذه الحال ! ٠ ٠ولم يكن البارون ـ الذى يعيش معها كل يوم ، والذى كان يرافقها دائما كظلها ـ قد لاحظ التغير الذى طرأ عليها ، فكان كلما شكت من تزايد ثقل جسمها ، أجابها: « ولكننى يا عزيزتى اعتدتَ أن أراكِ دائما هكذا ! »

وبعد أن رافقتهما « جان » الى غرفتهما ، قصدت الى غرفتها الخاصة ، حيث غلبها التأثر فانخرطت فى البكاء ٠٠ ثم ذهبت الى أبيها وعيناها لا تزالان مبللتين بالدموع ، وقالت له : « اواه يا أبت ٠٠ لكم تغيرت أمى !٠٠ ألا قل لى ماذا أصابها ؟ » ٠٠ فأجابها وقد تجلت عليه الدهشة : «اتظنين ذلك ؟ ٠٠ أعتقد انك مخطئة !٠٠ اننى لم افارقها قط ، ولست أرى أى تغير عراها ٠٠ فهى كما عهدتها دائما »

وفى تلك الليلة ، قال « جوليان » لزوجته : « ان امك تبدو فى أسوأ حال ٠٠ أعتقد انها جد مريضة »

وانفجرت « جان » باكية ، فقال : « حسبك !٠٠ ما قلت انها مقضى عليها ٠٠ انك دائما تبالغين فى الامور ٠٠ كل ما هنالك انها تغيرت كثيرا ، وهى حال طبيعية لامرأة فى سنها ٠٠ »

واستطاعت « جان » أن تتغلب على مخاوفها بعد أسبوع ، حين ألفت مظهر أمها ٠ ولعلها حاولت أن تطرد عنها ما ساورها من هواجس بصدد حالتها ، سيما وانها صارت لا تكاد تقوى على السير ٠٠ كانت تخرج للنزهة نصف ساعة كل يوم ، فاذا ما سارت الى نهاية « طريقها » ، طلبت اجلاسها على « مقعدها » ٠٠ وكانت لا تقوى أحيانا على بلوغ نهاية الطريق ، فتقف فى منتصفه قائلة : « لنقف هنا ، فلست أقوى اليوم على المضى ٠٠ »

وأصبحت نادرا ما تضحك ، مكتفية بالأبتسام اذا ما جاء ذكر الاشياء التي كانت ـ في السنة السابقة ـ تجعلها تضج بالضحك . على ان بصرها ظل قويا ، ولعله كان الشيء الوحيد الذى بقى لها ، فكانت تقضى الايام تعيد قراءة قصة «كورين» أو « تأملات لامارتين » .. وكثيرا ما كانت تطلب « صندوق ذكرياتها » فتفرغ فى حجرها ما يحويه من خطابات قديمة ، عزيزة على قلبها ، ثم تعيدها واحدا اثر الآخر ، بعد أن تقرأها فى صمت .. وكانت اذا اطمأنت الى انها وحيدة ـ وحدة حقيقية ـ تطبع قبلة على بعض خطابات معينة منها ، فى تكتم واجلال ، كما يفعل المرء بخصلة شعر تمت الى عزيزة أو عزيز .. وكانت « جان » تفاجىء أمها أحيانا وهى تبكى بحرقة ، فتسألها : « ماذا بك يا أمى العزيزة ؟ » .. فتتنهد البارونة فى أسى عميق وتجيب : **لقد أثرت فى نفسى مخلفاتي المدخرة .. استعدت ذكرى أشياء حبيبة الى قلبى ، قد ولت وانقضت !.. انك قد تتذكرين اناسا أوشكوا أن يضيعوا فى زوايا النسيان ، فتخالين انك ترينهم وتسمعينهم ، فيؤثر هذا فى نفسك أبلغ تأثير !.. ستعرفين فيما بعد هذا الشعور** »

وعندما كان البارون يفد على غير انتظار فيشترك فى هذه المواقف المؤثرة ، كان يقول : « صدقينى يا حبيبتى جان .. احرقى كل رسائلك .. كل رسالة من رسائل أمك ، ورسائلى .. فليس أدعى للحزن ، اذا ما تقدمت بك السن ، من ان تستعيدى ذكريات شبابك ! » .. على ان « جان » ظلت تحتفظ بخطاباتها ، فرغم انها كانت تختلف عن أمها فى كل شيء آخر ، الا انها اوتيت نفس طباعها العاطفية ، المرهفة ، الحالمة ، فكانت هى الاخرى تجمع لنفسها « صندوق ذكريات » !

ودعت بعض الأعمال البارون الى السفر ، فبدا على البارونة تحسن كبير ، وأوشكت سعادة « جان » ان تكتمل — بعد أن نسيت غدر «جيلبيرت» ، وغراميات «جوليان» ! — وكان الجو جميلا ، والحقول مليئة بالزهور ، والبحر بديعا ، يلفه الهدوء والسكون ، ويتألق فى بهاء تحت أشعة الشمس ..

★ ★ ★

◆ **وذات** صباح ، حملت جان « بول » بين ذراعيها وسارت فى الحقول ، تتأمل ابنها برهة ، وتتأمل الزهور برهة أخرى .. وشرعت تحلم بمستقبل ابنها .. ترى ماذا سيصبح ؟.. **وتمنت لو يصبح عظيما ، لكنها فى اللحظة التالية آثرت لو يبقى نكرة مغمورا ، حتى يظل قريبا منها دائما ، وحتى يظل أبدا محوطا بحنانها وحبها !.. كانت تحبه بكل ما فى قلب الام من أنانية .. تتمنى أن يظل ابنها ، ولا شيء أكثر من ذلك .. بيد انها كانت فى بعض الاحيان تحكم العقل فتأمل أن يصبح رجلا عظيما ..**

وجلست على الاعشاب لتتملى منه ، وكأنها لم تره قط قبل ذلك !.. وأخذ تتصوره رجلا مكتمل النمو ، ذا لحية مرسلة ، وخطوة رزينة ، وصوت جهورى .. وفيما كانت غارقة فى التفكير ، سمعت صوتا يناديها ، فالتفتت لترى « ماريوس » يقبل مسرعا نحوها ، فظنت لفورها ان ضيوفا جاءوا يزورونهم ، وساءها أن يقطعوا عليها أحلامها .. واذ اقترب « ماريوس » منها وهو يجرى بكل سرعته ، صاح : « سيدتى .. ان البارونة جد مريضة »

وأحست « جان » ببرودة قاسية تسرى فى جسدها ، كأنما صب على ظهرها ماء مثلوج .. وهرعت نحو البيت بكل ما وسعها من سرعة ، وهى مضطربة جزعة .. ورأت جمعا من الناس يقفون تحت شجرة (الدلب) ، فلما بلغت مكانها ،

أفسحوا لها لترى أمها مسجاة على الأرض ورأسها مسند الى وسائد ، ووجهها ملطخ بالسواد ، وعيناها مغلقتان ، وصدرها ساكن لا يعلو ولا يهبط !٠٠ كانت المخلوقة ، التى ظلت عشرين سنة لاهثة الانفاس ، هادئة الآن بلا حراك !٠٠ وتناولت المربية « بول » من بين ذراعى أمه وانصرفت به ٠٠

وصاحت « جان » متسائلة وقد تجلى على وجهها الجزع : « ما الذى جرى ؟٠٠ كيف سقطت ؟٠٠ اسرعوا ٠٠ استدعوا الطبيب ! » ٠٠ والتفتت فرأت القس وكان أحدهم قد بادر الى دعوته فأقبل يسدى يد المساعدة ٠٠ وأخذ يدلك وجه البارونة ويديها بالخل ، ولكن بلا جدوى ٠٠ فقال : « يجب أن تنقل الى فراشها »



وكان « كويار » - المزارع - موجودا ، وكذلك الحوذى « سيمون » والطاهية « لوديفين » ، فتعاونوا مع القس محاولين رفع البارونة ، لكن رأسها تدلى فى استرخاء ، وتمزق ثوبها تحت ثقلها ٠٠ وصرخت « جان » فى ذعر ، فأعادوا البارونة الى الأرض ٠٠ وجىء بعد ذلك بمقعد ذى مسندين من قاعة الجلوس ، فأجلسوا البارونة عليه ، وساروا بها وئيدا الى الشرفة ، ثم صعدوا السلم ، حتى انتهوا بها الى غرفتها ، فطرحوها على سريرها ٠٠ وبينما كانت لوديفين تحاول جاهدة أن تنضو عن البارونة ثيابها ، ظهرت أرملة «دنتو» ، وقد أقبلت - كالقس - بطريقة غامضة ٠٠ «كأنهما يشمان للموت عبيرا » ، كما قال الخدم !

وأسرع « جوزيف كويار » الى الطبيب يدعوه ، وفيما كان القس يهم بالذهاب لاحضار الزيوت المقدسة ، همست أرملة « دنتو » فى أذنه : **« لا تتعب نفسك أيها الاب الموقر ، فلا نفع يرجى ٠٠ انها ميتة ! » ٠٠ فحدث القس نفسه وهو يطلب لها الغفران : « لاضير فى ذلك ، على أية حال » !**

وظلوا ساعتين يتأملون ذلك الجسد المحتقن الهامد من الحركة ، وهو ينتظرون مقدم الطبيب ٠٠ وبرح بجان الاسى والالم الجائح ، فركعت الى جوار السرير تبكى فى مرارة ٠٠

وظهر الطبيب أخيرا ، فخيل اليها ان السلوى والامل يدخلان معه ٠٠ وشرحت له - بقدر ما استطاعت - ما نمى اليها عن الحادث ، قائلة : « كانت أمى فى نزهتها اليومية ٠٠ وكانت تشعر انها بخير ٠٠ فى خير حال ، حتى لقد تناولت فى الفطور بعض الحساء وبيضتين ٠٠ وفجأة ، سقطت ، وأخذ وجهها فى الاسوداد ، كما تراه الآن ٠٠ ولم تتحرك منذ تلك اللحظة ٠٠ لقد بذلنا كل ما فى وسعنا من جهد كى

تفيق •• دون جـدوى •• » ، وأمسكت جان اذ لمحت أرملة « دنتو » تلوح باشارات صريحة للطبيب ، وتحولت تسأله فى لهفة : « هل حالتها بالغة الخطورة ؟ •• أتظن حقا انها خطرة ؟ »

وأجاب الطبيب أخيرا : « تشجعى يا سيدتي •• يؤسفني انها النهاية ! » •• فرفعت « جان » المسكينة ذراعيها ، ثم ارتمت على جثة أمها •• وأقبل « جوليان » فى تلك اللحظة ، فبوغت وهو يلج الحجرة بالأمر ، بحيث لم يتمكن من ان يعد وجهه ومسلكه الاعداد الملائم ، بل بدا محنقا متضايقا ، لا تلوح على أساريره بادرة حزن •• وما لبث ان قال : « كنت أتوقع هذا •• كنت أدرك انها لن تعمر طويلا » •• وتناول منديله ، وتظاهر بأنه يجفف عينيه ، ورسم علامة الصليب على صدره فى تقوى ، ثم ركع متمتما ببضع كلمات • وبعد دقائق نهض ، وحاول أن ينهض « جان » •• لكنه عجز ، اذ تشبثت بجسد أمها بين ذراعيها ، وراحت تغرقه بقبلاتها ، وتهمس اليه بأعذب كلمات الاعزاز والحب •• كانت تبدو كما لو كانت قد فقدت عقلها ، حتى لقد اضطروا لأن ينتزعوها من فوق الجثة انتزاعا !

وعندما عادت « جان » الى غرفة أمها بعد ساعة ، كانت قد فقدت كل أمل ، وتحول المكان الى مأتم •• فوقف جوليان والقس بقرب النافذة يتهامسان ، واستقرت أرملة « دنتو » فى مقعد وثير وقد اطمأنت ، وبدت كما لو كانت فى بيتها فاستسلمت الى اغفاءة ، كما يفعل أولئك الذين يضطرون الى البقاء ساعات طوالا مستيقظين ••

* * *

◆ **وأقبل** المساء ، فسعى القس الى « جان » ، وأمسك بيدها بين راحتيه ، محاولا أن يسرى عنها •• همس لها بكلمات

العزاء المواسية ، وحدثها عن أمها بعبارات بارعة ، كساها بذلك الحزن الكاذب ، حزن أولئك الذين يجلب الموت لهم رزقا !٠٠ وعرض أن يسهر الليل يصلى بالقرب من الجثة ، لكن « جان » رفضت ودمعها مسترسل هتون ، فقد أرادت أن تبقى مع أمها وحدها ٠٠ لا يشاركهما فى خلوتهما أحد !

وقال جوليان : « هذا مستحيل ٠٠ سأمكث معك »

ولم تقو « جان » على النطق ، فأشارت برأسها أن « لا » ٠٠ وقالت أخيرا : « انها أمى ٠٠ فيجب أن أبقى وحيدة معها »

وهمس الطبيب : « دعوها تفعل ما يطيب لها ، وستمكث الممرضة فى الغرفة المجاورة » ٠٠ **ووافق القس وجوليان على رأى الطبيب فى اغتباط ، فقد كانا يهفوان الى سريريهما !٠٠ وركع القس مصليا ، لبضع دقائق ، ثم ترك الحجرة وهو يقول: « لقد كانت قديسة » ٠٠ قالها بعين اللهجة التى يقول بهاعادة: « الرب معكم » !**

واقترب جوليان من جان قائلا بصوته المعهود : « ألا ترغبين فى شىء ؟ »

ولم تفطن جان الى أنه كان يكلمها ، فلم تجب ٠٠ بينما تابع حديثه قائلا : « يحسن بك أن تأكلى شيئا ، فلسوف يبعث الطعام فيك قوة »

لكن جان أجابته قائلة : « ارسل فى استدعاء أبى فورا »٠٠ فخرج ليوفد رسولا الى « روان » ، بينما بقيت جان فى شبه ذهول ، ترتقب الساعة التى تخلو فيها الى نفسها لتطلق العنان لحزنها القانط ٠٠ وأخذت أرملة « دنتو » تجوس فى الحجرة تسوى الاشياء ، فى خطى غير مسموعة ٠ وأشعلت شمعة وضعتها على منضدة عند رأس السرير ٠ لكن جان لم تر شيئا ، ولم يبد عليها أنها كانت تدرك شيئا ٠٠ لم يكن لها من هم سوى أن تكون وحيدة !

وعاد جوليان ، وقد فرغ لتوه من تناول عشائه ، فسأل جان مرة أخرى : « هلا أكلت شيئا ؟ »

وهزت جان رأسها بالرفض ، فجلس وهو آلى تكلف الرزانة أقرب منه الى الحزن الحقيقى ، ولم يفه بكلمة ٠٠ وكانت أرملة « دنتو » ماضية فى سباتها ، تغط من آن الى آخر ، فتستيقظ فجأة ٠٠ ونهض جوليان أخيرا ، فاقترب من جان قائلا : «هل تودين أن تبقى وحيدة تماما هنا ؟ »

فصافحته جان دون وعى أو انتباه وقالت : « أجل ٠٠ أتركونى » ٠٠ واذ ذاك طبع على جبينها قبلة وغمغم : « سآتى لأطمئن عليك من وقت لآخر » ثم انصرف ٠٠ وخرجت أرملة « دنتو » هى الأخرى ، حاملة مقعدها معها الى الحجرة المجاورة

واذ غدت جان وحيدة ، بادرت فأغلقت الباب ، ثم فتحت النافذتين على مصاريعهما ٠٠ وسرى الى الغرفة عبير الحشائش، فتسلل شذاها الى رئتيها ٠٠ وآلمها ان أحست له لذة ، وكأنما كان من السخرية أن تستمرىء الشذى والنسيم ، فعادت الى فراش المتوفاة ، وتناولت احدى يديها فى يدها ، وأخذت تتأمل ملامحها ٠٠ لم تعد منتفخة متورمة ٠٠ ولاح كأنها تنام فى دعة ٠٠ بل لقد بدت تحت الضوء الشاحب المنعكس عن الشمعة ، كما لو كانت على قيد الحياة ، توشك أن تتحرك ! ومضت جان تتأملها فى نهم ، وقد عاودتها مواكب الذكريات ٠٠ تذكرت زيارات أمها لها في مدرسة الدير ، وكيف كانت تقدم لها كيس الكعك ٠٠ وعشرات بل مئات من الوقائع ، والتفصيلات ، والكلمات ، والاشارات المألوفة ٠٠ كيف كانت تزوى مابين عينيها اذا ضحكت ٠٠ وكيف كانت تتنهد وهى تجلس ، وأنفاسها تكاد تتقطع ٠٠ الخ

ووقفت تتأملها فى ذهول متبلد ، وهى تتكرر لنفسها : « لقد ماتت ! » ٠٠ وفجأة ، صدمتها الحقيقة المروعة ونبهت وعيها

٠٠ كانت هذه الجثة هى أمها ٠٠ أمها العزيزة التى لن يقدر لها أن تتكلم ثانية أو تضحك أبدا ٠٠ لن تجلس بعد الآن الى المائدة مواجهة لأبيها ، ولن تقول بعد اليوم : « سعدت صباحا يا جانيت » ٠٠ ماتت !٠٠ ولسوف يضعونها فى صندوق يحكمون اغلاقه ، ثم يدفنونها تحت الثرى ٠٠ وبعد ذلك ٠٠ ينتهى كل شىء ، فلا تراها بعد ذلك قط ؟

أمحتمل هذا ؟٠٠ هل ستؤخذ أمها وتفصل عنها ؟٠٠ هذا الوجه الحبيب ، المألوف ٠٠ أول وجه رأته وأحبته فى حياتها هاهى العزيزة التى كانت أول من شغل قلبها ٠٠ لم تعد على قيد الحياة !٠٠ لم تبق لها سوى سويعات قلائل تتأمل فيها هذا الوجه الساكن وتملى بصرها منه ، ثم ٠٠ لايبقى منه غير ذكرى !٠٠ وانهارت راكعة على ركبتيها ، وقد تملكها أسى مروع ، ودفنت وجهها فى الفراش ، وأخذت تعتصر يديها وهى تهتف معولة بصوت منبعث من أعماق قلبها : « أواه يا أماه !٠٠ يا أمى المسكينة ! »

٠٠ وأحست جان بعقلها يكاد يختبل ، على غرار ماحدث ليلة أن انطلقت تعدو فى أحضان الجليد ٠٠ فنهضت الى النافذة تستنشق نسمة من الهواء النقى تسرى عنها ٠٠وخفف سكون الليل الساجى وعبير الحشائش من حدة جواها هونا ما ، فأخذت تبكى فى خفوت ٠٠ وعادت فجلست على مقربة من السرير ، وتناولت احدى يدى أمها بين راحتيها مرة أخرى، كما لو كانت البارونة « مريضة » فقط !٠٠ واجتذب الضوء حشرة كبيرة ، فراحت تحلق فى جو الحجرة جيئة وذهابا ٠٠ وراقبتها جان برهة ، ثم نسيت أمرها ٠٠ ومالبثت حركة بندول ساعة ، أن استرعت انتباهها ، مختلطة بصوت آخر لم تكد تتبينه ٠٠ كانت تلك ساعة أمها ، لاتزال دائرة ، وهى مثبتة فى ثوبها الذى ألقى فى آهمال على مقعد عندطرف السرير

.. وأذكت علاقة أمها بهذه الساعة الصغيرة ـ التى لم تكف عن الدوران ـ من وقدة حزنها .. وتعرفت على الوقت، فاذا الساعة لم تتجاوز النصف بعد العاشرة .. واذ فكرت فى أنها ستقضى الليل بطوله فى تلك الغرفة ، تملكها الذعر !

ولم تلبث أفكارها أن اتجهت الى أمور وذكريات أخرى فى حياتها : روزالى ، وجيلبيرت ، وألوان الخداع والغدر المريرة .. أليس فى حياتها سوى التعاسة ، والحزن ، والموت ؟.. كل شىء كان غدرا ، وزيفا ، وألما ، ودموعا !.. ترى أين تجد السلام والسعادة ؟.. لعلها تجدهما فى عالم آخر ، اذا ماتخلصت روحها من شواغلها الدنيوية .. الروح !..وفكرت فى هذا السر الغامض الذى لا قرار له !.. أين ذهبت روح ذلك الجسد البارد الجامد ؟.. أين ذهبت روح أمها ؟.. لعلها رحلت بعيدا ، وبعيدا جدا ، الى مكان مجهول .. ولكن، أين ؟.. ربما كانت جد قريبة منها .. لعلها فى هذه الحجرة تحوم حول الجسد الساكن المسجى على الفراش .. وفجأة ، خيل لجان أنها سمعت تردد أنفاس غامضة ، وكأن روحا تحوم حولها ، فاستولى عليها الذعر .. وبلغ من فزعها ان لم تعد تقوى على الحركة ، أو التنفس ، أو الالتفات خلفها .. وراح قلبها يخفق فى عنف وسرعة ..

وفجأة ، عاودت الحشرة تحويمها الجنونى فى الحجرة ، فكاد الخوف يزهق أنفاس جان ، لكنها سرعان ما اطمأنت اذ عرفت مصدر الصوت ، فنهضت وتلفتت حولها ، واذا بصرها يقع على مكتب أمها .. وسيطرت عليها فكرة غريبة ، منبعثة عن فيض العاطفة .. **تلك هى أن تطلع على الخطابات القديمة التى كانت عزيزة على قلب أمها ، وأن تقرأها كما لو كانت تقرأ كتابا مقدسا .. وبذلك تؤدى واجبا قدسيا ، صادرا عن وفاء**

بنوى يرضى أمها فى العالم الآخر ٠٠ فقد كانت الخطابات تضم رسائل جديها التى لم تطلع أبدا عليها ٠٠

ونهضت الى المكتب ففتحته ٠٠ ومن الدرج الأسفل ـ « صندوق الذكريات » ـ تناولت عدة لفافات من الورق المصفر الحائل اللون ، ربطت فى عناية ٠٠ وفى فيض من الأحاسيس المرهفة ، وضعتها جميعا على السرير ٠٠ على جسد أمها ٠٠ وشرعت تقرأها ٠٠ كان الاول موجها الى « حبيبتى » ، والثانى الى « صغيرتى العزيزة » ، وثالث الى « طفلتى العزيزة » وآخر الى « فتاتى الحبيبة » ، وغيره الى « عزيزتى أدليد » ، وهكذا ! ٠٠ وكانت كلها مفعمة بالحنان الجياش ، حاشدة بألف جزئية صغيرة من التفصيلات التى لا يفقه لها الغريب قيمة : « لقد أصيب أبوك بالانفلوزا ٠٠ وأحرقت « هورتنس » نفسها ٠٠ وماتت القطة « كروكيرا » ٠٠ وفقدت ماما كتاب صلواتها أثناء عودتها من الكنيسة ، وهى تظن أنه سرق منها ٠٠ كذلك كانت الرسائل حافلة بذكر اناس لم تكن جان تعرفهم ، وان ذكرت انها سمعت فى طفولتها اسماءهم ٠٠

وكان لهذه التفصيلات أبلغ الاثر فى نفس جان ، اذ انتقلت فجأة الى عمار حياة أمها الماضية ٠٠ الى أعمق أغوار قلبها ٠٠ وأخذت تقرأ الخطابات بصوت مرتفع وكأنها تسلى أمها الميتة وتسرى عنها !٠٠ ثم راحت ترتبها واحدا فوق الآخر ، عند طرف السرير ، بعد الانتهاء من تلاوة كل منها مباشرة ، وهى تقول لنفسها : «سوف أضع هذه الرسائل فى تابوت أمى كما لو كانت زهورا » ٠

وفضت لفافة ثانية ٠٠ كانت مكتوبة بخط يختلف عما كتبت به الاولى ٠٠ ومضت تقرأ : « **لا أستطيع العيش بدون حبك ٠٠ اننى أحبك الى درجة الجنون » ٠٠ ولم يكن ثمة توقيع تستطيع جان أن تتلمس فيه ايضاحا ، فلم تفقه للرسالة معنى**

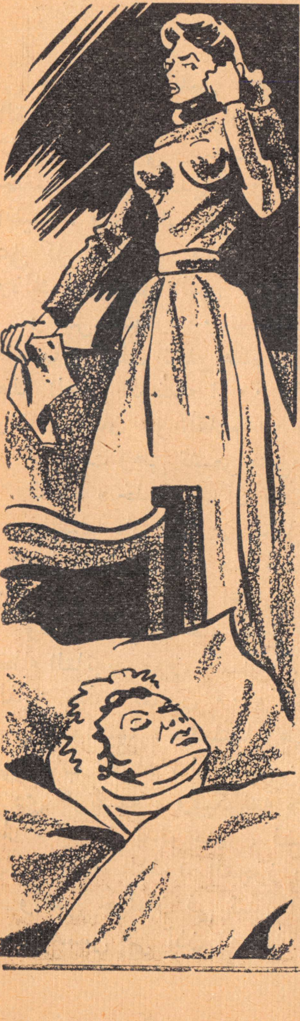
.. وقلبت الورقة بين يديها ، فاذا على وجهها الآخر عنوان : « البارونة دى بيرتيوس دى فود » .. وفضت رسالة أخرى ، فقرأت فيها : « تعالى الليلة بمجرد خروجه .. سنحظى بساعة هانئة .. انى أعبدك » .. وفى خطاب آخر : « قضيت ليلة محمومة ، لكم أتوق اليك ! .. كنت أتمثلك بـــين ذراعى ، وشفتاك على شفتى .. ثم أوشكت أن أقفز من النــافذة ، اذ فكرت فى انك كنت فى تلك الساعة تضطجعين الى جواره .. »

.. وحارت جان وارتبكت .. لمن كانت كلمات الهوى هذه موجهة ؟ .. وعمن كانت الرسائل تتحدث ؟

واستأنفت القراءة .. كانت اللهجة نفسها .. نفس أهازيج الهوى المستعرة ، تنتهى بتوصيات بالتزام الحذر ، وفى ختامها دائما هذه الكلمات : « احرصى على أن تحرقى هذا الخطاب » .. وانتهت « جان » أخيرا الى قصاصة عادية تضمنت وعدا بتلبية دعوة للعشاء .. وكانت بنفس الخط ، ومذيلة بتوقيع « بول دينمار » .. الشخص عينه الذى كان البارون يدعوه «صديقى الحميم بول» ، والذى كانت زوجته خير صديقات البارونة !

وفجأة ، تسلل الى ذهن « جان » الشك ، وسرعان ما تحول الى يقين .. لقد كان هذا الرجل عشيق أمها ! .. وقفزت واقفة على قدميها ، وألقت الخطابات الغرامية من يدها وكأنها تجفل من أفعى ، وانخرطت فى بكاء مرير .. وما لبثت أن استسلمت للقنوط الطاغى ، فتهاوت على الارض جامدة الاطراف ، ومضت تبكى فى حرقة وهى تخفى وجهها فى راحتيها ، حتى لا يسمع أحد شهقاتها ..

وكان من المحتمل أن تبقى على حالها هذه طيلة الليل ، لولا أن سمعت وقع خطوات فى الغرفة المجاورة ، وتنبهت الى أنه من المحتمل أن تكون هذه الخطوات لأبيها .. ففكرت فورا فى الخطابات المتناثرة على السرير والارض .. لم يكن يعوزه سوى



أن يقرأ خطابا واحدا ، فيفهم كل شيء !٠٠ وبادرت بجمع الخطابات كلها : خطابات جديها ، وخطابات العاشق ، والخطابات التى لم تطلع بعد عليها ، وتلك التى ما زالت محوطة بالاشرطة ٠٠ وألقتها جميعا فى المدفأة ، ثم تناولت الشمعة ، فأوقدت النار فيها ! ٠٠ ولما لم تبق سوى حفنة من الرماد ، عادت الى مقعدها بجوار النافذة ، دون أن تجرؤ على الاقتراب من أمها وأخفت وجهها فى راحتيها ، وأخذت تئن متوجعة : « أواه ، يا أمى المسكينة ٠٠ يا أمى البائسة ! »

واذ ذاك خامرتها فكرة قاسية ٠٠ لو فرض أن أمها لم تكن ميتة ٠٠ لو انها كانت نائمة فقط ، ولن تلبث أن تستيقظ ، أو لا تؤثر معرفة السر الرهيب فى حبها لجان ! ٠٠ هل تقوى على أن تقبلها بنفس الوفاء السابق ، وبنفس المحبة القدسية السابقة ؟٠٠ مستحيل ٠٠ وأفعمت الفكرة نفسها بالالم المشبوب !

★ ★ ★

◆ **واكتهل** الليل ، فأوشكت النجوم أن تختفى ، وأخذ القمر يسرع فى التوارى خلف البحر ٠٠ وارتد بال جان الى تلك الليلة التى وصلت فيها الى ضيعة أشجار « الحور » بعد أن خلفت مدرسة الدير ٠٠ لقد جلست أمام النافذة طوال تلك الليلة ، ولكن فى ظروف مختلفة ٠٠ ما أشد التغير الذى طرأ على كل شىء !٠٠ وما أكثر أوجه التباين بين ما أصبحت عليه ، وذلك المستقبل الذى تراءى لها ليلتذاك !

وأقبل النهار ٠٠ نهار مشرق جميل ٠٠ وعجبت جان فى نفسها : كيف تخلو هذه الارض من البهجة والسلام وفيها مثل هذا الفجر الوضاء ! ٠٠ وأجفلت اذ سمعت صرير الباب ٠٠ واذا جوليان هو القادم ٠٠ وسألها : « أمتعبة أنت ؟ »

فأجابت وهى تشعر بشىء من الارتياح لرؤيته : « لا » ٠

قال : « خليق بك أن تنصرفى لتنالى قسطا من الراحة » ٠

فقبلت جان أمها فى تمهل وحزن ، ثم انصرفت الى غرفتها٠ ووصل البارون فى مساء ذلك اليوم ، فانخرط فى بكاء أليم ٠٠ وتقرر أن تشيع الجنازة فى اليوم التالى ٠

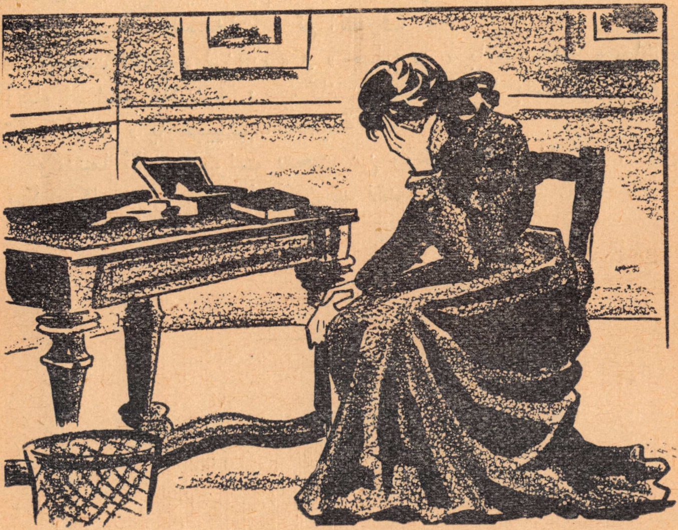
وعند ما قبلت جان جبين أمها للمرة الاخيرة ، ورأتهم يثبتون غطاء التابوت فوق جسدها ، تنحت جانبا ، لتستقبل الزائرين الذين بدأوا يفدون ٠٠ وكانت « جيلبيرت » أولاهم ، فطوقت جان بذراعيها ، وقبلتها وهى تبكى بحرقة ٠٠ وأقبلت نسوة فى ثياب الحداد ، لم تعرفهن جان ٠٠ وقبلتها كل من المركيزة « دى كوتلييه » وفيكونتة « دى بريزفيل » ٠٠ وفجأة ، رأت الخالة ليزون تدنو منها ، فضمتها جان الى صدرها ، فى حرارة كادت تفقد العذراء العجوز رشدها !

وأقبل جوليان فى ثياب الحداد الكاملة ، فبدا وسيم الطلعة ٠٠ وهمس فى أذن زوجته يستشيرها فى بعض الامور ، ثم

أضاف : « كل علية القوم هنا ٠٠ ستكون الجنازة رائعة ! » ٠٠ وانحنى محييا السيدات ، ثم انصرف

وبقيت الخالة « ليزون » و « جيلبيرت » بالقرب من « جان » أثناء المراسم الدينية ٠٠ وكانت الكونتة تقبلها باستمرار وهى تكرر لها : « يا حبيبتى المسكينة ! »

وعندما أقبل الكونت يبحث عن زوجته لينصرفا معا ، كان يبكى بكاء مريرا ، كما لو كان قد فقد أمه !



الفصـــل العـــاشر

◆ **كانت** الأيام التالية كئيبة حقا ، فقد بدا البيت خاويا لغياب الحبيبة التى أسلمت الى مضجعها الاخير • وكان مرأى الاشياء التى كانت تستعملها فى حياتها ، يثقل على قلوب أولئك الذين بقوا بعدها •• ففى الردهة ، كان الكوب الذى نسيت الخادم أن ترفعه ، ومقعدها ، ومظلتها ، تذكر كلها بها •• وفى كل غرفة كانوا يجدون أشياء خلفتها وراءها : مقصها ، وأحد قفازيها ، وكتاب بليت صفحاته من كثرة قراءته ، وعـــدد من الاشياء الصغيرة الاخرى التى اكتسبت معنى أليما لأنها كانت

تبعث فى النفوس ذكرى الكثير من عاداتها ٠٠ بل لقد كان صوتها أيضا يلاحقهم ، فكانوا يتوهمون أنهم يسمعونه ٠٠ وما كانوا ليحجموا عن أن يلجأوا الى أى مكان ، فرارا من الذكريات الموجعة التى كانت تثيرها هذه الاشياء فى نفوسهم ٠٠

وكانت « جان » ـ الى كل هذا ـ قد تحطمت نفسها تحت وطأة اكتشافها لسر أمها ٠٠ كان التفكير فى هذا السر يرهق ذهنها ٠٠ وأبى جرح قلبها المثلوم أن يندمل ٠٠ واشتدت وحدتها وحشة ، بعد معرفة هذا السر الرهيب ، اذ تلاشت البقية الباقية من الثقة والايمان من نفسها !

وسافر البارون فترة من الوقت ، بعد اذ شعر بحاجة ماسة الى تغيير الجو والمناظر ، وراوده الامل فى أن ينفض عنه الهموم التى كانت تتراكم على كاهله يوما بعد يوم ٠٠ ومضت حياة البيت الكبير ـ الذى فارقه رباه ، واحد بعد الآخر ـ فى هدوء رتيب ٠٠

وما لبث الطفل « بول » أن أصيب بمرض ، فكادت « جان » أن تجن لفرط لهفتها وقلقها ، وظلت الى جوار فراشه عشرين ليلة ، قلما ذاقت خلالها طعاما ! ٠٠ وقدر له أن يبرأ ، لكنها ظلت مع ذلك واجفة لمجرد التفكير فى أنها كادت تفقده ٠٠ فماذا كانت تراها فاعلة لو قدر لها ذلك ؟ ٠٠ ما الذى كان يصيبها ؟ ٠٠ ومن ثم تسلل الى نفسها حنين الى أن يكون لها طفل آخر ٠٠ وأثار الخاطر حلمها القديم فى أن ترى لنفسها طفلين يلعبان حولها : ولدا وبنتا ٠٠ فتحول الحلم الى رغبة جامحة أخذت تسيطر عليها تدريجا ٠

لكنها كانت ـ منذ حادث روزالى ـ تعيش بمعزل عن جوليان، وكان يبدو من المستحيل السعى الى توحيد حياتهما الخاصة من جديد فى الظروف الراهنة ٠٠ سيما وقد اشتبك زوجها فى

علاقة أخرى ، ما كان لديها أدنى شك فى وجودها ! ٠٠ وهكذا كانت كلما فكرت فى أن تصلح ذات البين بينها وبينه ، ازدادت تقززا واستنكارا !

ومع ذلك ، فقد كانت على استعداد ، لأن تغالب اشمئزازها فى سبيل تحقيق رغبتها فى أن تنجب طفلا ٠٠ بيد أنها لم تجد حيلة تتذرع بها للصلح ٠٠ وكانت تؤثر أن تموت ، على أن تدع زوجها يدرك نيتها ، فقد وضح من مسلكه أنه لم يعد يكترث بها !

ولعلها كانت قادرة على أن تطرح عنها هذه الرغبة المستبدة لولا أنها أمست ترى فى أحلامها كل ليلة ، طفلة صغيرة تلعب مع « بول » تحت شجرة الدلب ، فكانت فى بعض الاحيان تحس حافزا لا سبيل الى مقاومته ، يدفعها الى أن تنهض لتنشد زوجها ، دون أن تنبس ببنت شفة ! ولقد تسللت بالفعل مرتين حتى بلغت مخدعه ، لكنها كانت تمسك نفسها عن أن تدير أكرة الباب ، فتكر عائدة ، وقد غشيها شعور غالب من حياء !

* * *

◆ **وكان** البارون لا يزال على سفر ، وأمها ميتة ، وليس ثمة من تستشيره ٠٠ أو من تفضى اليه بأسرارها الدفينة ٠٠ ومن ثم حزمت أمرها على أن تلجأ الى الاب « بيكو » ، فتفضى اليه ــ تحت ستار الاعتراف ــ بالخطط والافكار التى كانت تتناهب خاطرها ٠

وألفته فى حديقته الصغيرة ، التى تنبت فيها أشجار الفاكهة ، وقد انصرف الى ترديد صلواته ٠٠ وبعد تبادل العبارات العادية التى يتطلبها الموقف ، قالت متلعثمة متضرجة الوجه : « انما جئت يا سيدى القس كى أعترف ٠٠ »

فتطلع اليها القس فى دهشة ، وأصلح من وضع منظاريه ليتفرس فيها متفحصا ، ثم ضحك قائلا : « لا أكاد أعتقد أن ثمة

خطايا باهظة تثقل ضميرك ! » ٠٠ واستطاعت رغم حيرتها البالغة أن تجيب : « لا ٠٠ ليس هذا ما عنيته بالضبط ٠٠ وانما جئت أبتغي نصحك فى أمر ٠٠ أمر دقيق بالغ الحرج ، لاأستطيع أن أتحدث فيه ٠٠ بصراحة ! »

وحينئذ ، تخلى الاب بيكو عن مسلكه الرقيق ومجاملاته ، واسترد مظهره الدينى ، ثم قال : « حسنا يا طفلتى ٠٠ سأنصت لحديثك على أنه اعتراف ، فتعالى الى الكنيسة ٠٠ »

بيد أن جان أحست فجأة أنها لا تكاد تستطيع أن تخوض فى مثل هذه المسائل المخجلة فى الهيكل المقدس الخالى ، فأمسكت ذراعه تجتذبه قائلة : « لا ياسيدى الاسقف ٠٠ اذا ٠٠ اذا لم تر بأسا ، فاننى ٠٠ أوثر أن أحدثك هنا عما جئت من أجله ٠٠ نستطيع أن نقصد الى الخميلة فنجلس تحتها ٠٠ »

وسارا على مهل الى الخميلة الصغيرة فجلسا تحتها ، و «جان» تحاول أن تجد كلمات تمهد بها لموضوعها ٠٠ وأخيرا شرعت تقول ، كما لو كانت تعترف بخطايا وذنوب : « أبت ! » ٠٠ ثم ترددت ، وما لبثت أن عادت تكرر : « أبت ! » ٠٠ وتوقفت يغالبها الارتباك ٠٠ وطوى القس يديه منتظرا ٠٠ وبعد برهة ، قال يشجعها وقد لمس مدى حيرتها : « وبعد يا طفلتى ٠٠ يبدو أنك خائفة ! ٠٠ هيا اطلقى لسانك ! »

وأخيرا ، استجمعت قدرا كافيا من جرأتها ـ كجبان انتابته نوبة من الشجاعة ـ وقالت متلعثمة ، متعجلة : « أبت ، اننى أبغى ٠٠ طفلا آخر ! »

ولم يحر جوابا ، اذ لم يفقه تماما قولها ٠٠ ولاحظت من ناحيتها هذا ، فشاءت أن تزيد قولها وضوحا ، واستأنفت قائلة فى ارتباك وعناء : « انك تدرك أننى أصبحت وحيدة فى الدنيا ٠٠ فأبى وزوجى لا يتفقان ٠٠ وأمى قد ماتت ، و ٠٠ » ٠٠ ثم

صارت ألفاظها غير واضحة المخارج وهى تمضى قائلة : « ومنذ أيام ، كدت أفقد ابنى ! ٠٠ فماذا كان يصيبنى اذ ذاك ؟ »

فتأملها القس بنظرة مذهولة ، ثم قال : « حسنا ٠٠ امضى الى هدفك »

فرددت القول : « أريد طفلا آخر ! »

وابتسم القس ، وهو الذى اعتاد سماع حماقات الفلاحين الذين لا يحفلون بما يقولون فى حضرته ٠٠ ثم أجاب وهو يهز رأسه فى حركة الخبير العالم : « حسنا ٠٠ الامر فى يدك »

فرفعت نحوه عينين صريحتين ، وقالت متلعثمة : « أجل ٠٠ ولكنك تعرف ٠٠ منذ الحادث ٠٠ حادث الخادم ٠٠ نعيش ٠٠ زوجى وأنا ٠٠ منفصلين »

وبهت القس لهذا الاعتراف ، وهو الذى يعلم مدى تسامح أهل الريف ، فيما يتعلق بمبادىء الاخلاق والادب ! ٠٠ وفجأة، خيل اليه أنه قد حدس ما فى نفس الزوجة الشابة من رغبة حقيقية ، فأشاح بوجهه وقد فاض عطفه واشفاقه عليها لحيرتها وأساها ، وقال : « أجل ، فهمت ، فهمت ٠٠ من الطبيعى حقا أن يكون « ترملك » هذا بغيضا الى نفسك ، قاسيا عليها ، فأنت شابة ، موفورة الصحة ٠٠ هذا طبيعى للغاية ٠٠ »

وتجلت طبيعة قس الريف المتسامحة فى ابتسامة جديدة ٠٠ ثم ربت على يدها فى لطف وهو يستأنف الحديث : « انه أمر مباح أيضا ٠٠ هكذا تقول الوصايا ٠٠ ألست متزوجة ؟ ٠٠ حسنا ، انك لست متزوجة لتزرعى البطاطس ٠٠ أليس كذلك؟»

ولم تستوعب فى بادىء الأمر كلماته المتدفقة ، بيد أن معانيها لم تكد تشرق فى ذهنها ، حتى احتقن وجهها ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وهتفت : « أواه ، يا سيدى القس ! ٠٠ ماالذى ترمى اليه ؟ ٠٠ ماذا يجول بخاطرك ؟ ٠٠ أواه ، اننى أقسم لك ٠٠ »

وحبست العبرات صوتها ، فاشتدت دهشة القس ، وحاول أن يسرى عنها بقوله : « آه ، حسبك ! ٠٠ ما أردت أن أجرح مشاعرك ، وانما كنت أمزح كما تعلمين ٠٠ ان تجمل المرأة بالفضيلة لا يكون دون ثمن أو أعباء ، ولكن ، اعتمدى على ٠٠ اعتمدى على كل الاعتماد ، وسأقابل السيد جوليان بهذا الصدد»

* * *

• ومر أسبوع ، وجان تعيش فى شبه حمى من القلق ٠ وذات مساء ، رمقها جوليان – أثناء العشاء – بنظرة ذات معنى خاص ، وعلى فمه الامارات التى تظهر عليه حين يأنس من مزاجه ميلا الى الغزل ٠ بل لقد أخذ يعاملها فى رقة ساخنة بعض الشىء ٠٠ وعندما كانا يتمشيان فى طريق البارونة بعد العشاء ، مال عليها وهمس فى أذنها : « اذن فقد تصالحنا ٠٠ أليس كذلك ؟ »

ولم تحر جوابا ، بل انهمكت فى تأمل خط مستقيم على أديم الارض ، لا يكاد يبين نظرا لنمو الحشائش فوقه ٠٠ وكان ذلك الخط أثرا باقيا من قدم أمها ، كأنه الذكرى الواهنة ٠٠ ومضى زوجها فى غير استحياء : « ما أكثر ابتهاجى بهذا ٠٠ انما كنت خائفا من أن لا أدخل السرور على نفسك ! »

وكانت الشمس قد غربت وراء الاشجار ، وشاعت البرودة فى هواء الليل المبكر ٠٠ **وأحست جان برغبة فى البكاء ، وفى أن تطوق بذراعيها أحدا ، وان تسكب أشجانها فى أذن تصغى اليها فى عطف حنون ٠٠ وأفلتت منها شهقة باكية ، فبسطت ذراعيها وارتمت فوق صدر زوجها ٠٠ وأخذت تبكى وتنتحب ، وهو يحملق فيها مندهشا ، لا يكاد يتبين وجهها الذى أخفته فى ثنايا سترته ٠ لم يكن يرى غير شعرها الغزير المتموج٠٠وخيل اليه أنها لا تزال تهواه ، فأخذ يقبل شعرها ملاطفا ٠ وعادا الى الدار دون أن ينبسا بكلمة ٠٠ ثم رافقها الى مخدعها ٠**

واستأنفا ما انقطع من صلاتهما ٠٠ وكان جوليان يقوم بدوره في شعور من يؤدي واجبا ليس بالبغيض ٠٠ وكانت هي تنصاع لما كانت تعتبره ضرورة مؤلمة ، مثيرة للاشمئزاز ، وهي تضمر في نفسها أن تقطع كل اتصال بزوجها الى الابد ، بعد أن تحس ببوادر الحمل مباشرة !

على أنها سرعان ما تبينت تغيرا في مسلك جوليان أثناء خلوتهما ، اذ لم يعد يتصرف بذلك الاطمئنان الذي يطبع مسلك الازواج ، وانما كان يلتزم حرص « العاشق » ! ٠٠ وأدهشها ذلك ، فقررت أن تكون متيقظة ٠٠ واستطاعت أخيرا أن تتبين أنه كان يقطع اتصالهما قبل أن يبلغ نهايته الطبيعية !

وهمست له ذات مرة وشفتاها على شفتيه : « لماذا أراك على غير ما اعتدت أن تكون ؟ »

فأجابها في ابتسامة ساخرة : «لأنني لاأريد أطفالا آخرين !» فتساءلت مأخوذة : « ولم لا ؟ » ٠٠ واذ ذاك أجابها والدهشة تكاد تعقل لسانه : « ماذا ؟ هل جننت ؟ أيكون لنا طفل آخر ؟ ٠٠ لا ! ٠٠ ألا يكفي واحد لقلب نظام البيت رأسا على عقب ، وزيادة النفقات ؟ ٠٠ طفل ؟! ٠٠ لا ، شكرا لك ! »

ولكنها طوقت عنقه وراحت تضرع اليه وهي تقبله : « أواه ، يا جوليان ! ٠٠ أرجوك ٠٠ ليكن لنا طفل آخر ! »

فاحتدم غضبه ، كما لو كانت قد جرحته بضراعتها ، وقال : « لا ينبغي أن تفقدي صوابك يا جان ٠٠ دعيني من نزواتك الحمقاء ! »

وصمتت ، لكنها عزمت في نفسها على أن تلجأ الى الحيلة لاجباره على أن يتيح لها ما تتوق اليه من سعادة ٠٠ ومن ثم اطالت من قبلاتهما ، وتظاهرت بالوجد العارم ، واستعانت بكل وسيلة ودهاء ، ومع ذلك فقد ذهبت محاولاتها أدراج الرياح ، لانه كان مسيطرا تمام السيطرة على نفسه ٠٠

* * *

♦ **واذ** رأت جان عدم جدوى جهودها ، وبدأت خيبة أملها فى أن ترزق بطفلة تدفعها الى اليأس ، قررت أن تواجه كل الاحتمالات ، وأن تركب كل الاخطار ٠٠ فعادت الى «الاب بيكو» ٠٠ وكان قد فرغ من تناول افطاره ، واحتقن وجهه لما كان يعانيه من اضطراب فى القلب بعد الوجبات ٠٠ فما أن رأى جان حتى هتف بها : « هيه ٠٠ ماذا تم ؟ » ٠٠ فقد كان مشوقا الى معرفة نتيجة وساطته !

وبادرت تجيبه دون أن يعتريها شىء من خجلها السابق وترددها : « ان زوجى لا يريد طفلا آخر ! »



واشتد انتباه القس ، فالتفت اليها وقد استعد لأن يغوص فى تلك المعميات الزوجية التى كانت كثيرا ما تضفى على « الاعترافات » جوا يلذ له ، وتساءل : « وكيف كان ذلك ؟ »

ولم تتمالك أن تشعر بمضض وحرج على الرغم مما كانت قد عقدت عليه العزم ، فقالت : « انه ٠٠ انه يرفض أن يدعنى أحمل »

وفهم القس ، اذ كان على دراية بهذه الامور ٠ ومع ذلك فقد أخذ يمطرها بالاسئلة ، وفكر مليا ، ثم قال فى صوت هادىء ، وكأنه يتحدث عن محصول الارض المرتقب ، ويرسم خطةواضحة دقيقة تتبع لضمان الحصول عليه : « **لم تبق غير وسيلة واحدة يا ابنتى ٠٠ دعيه يعتقد بأنك حامل ، فاذ ذاك يتخلى عن حذره !** »

وتضرج وجهها حتى منابت الشعر من رأسها ، لكنها سرعان ما تمالكت جأشها ، وتخلصت من كل حرج ، فسألته فى الحاح : « واذا لم يصدقنى ! »

فقال القس الخبير بطباع الرجال : « أنبئى كل امرىء بالخبر ، فلا يلبث زوجك بعد فترة أن يصدقه » ٠٠ ولكى يبرر رجل الدين جنوحه الى مثل هذه السياسة ، استدرك قائلا : « ان من حقك أن تنهجى هذا السبيل ، لأن الكنيسة لا تتسامح ازاء هذه العلاقات ، الا من أجل التناسل والتكاثر ! »

واتبعت جان نصيحته البارعة ٠٠ فأنبأت جوليان ، بعد أسبوعين ، بأنها ترجح أنها قد حملت ٠٠ فأجفل مأخوذا ، ثم هتف : « هذا غير ممكن ! »

ولكنها أصرت ، وأنبأته بما يدعوها الى هذا الظن ٠ بيد أنه لم يجب بغير هذه الكلمات : « واها لك ! ٠٠ أنتظرى فترة ، وسوف نرى »

وأخذ يسألها كل يوم : « هيه ؟ » ، فكانت تجيبه دائما بقولها : «لا ، لم أتبين بعد ٠٠ لسوف أدهش حقا اذا لم أكن حبلى » ٠٠ فكان يزفر فى انفعال ، ويبدى الدهشة ، ويأبى أن يصدق ، ثم يمضى مرددا : « لست أفهم ٠٠ لست أدرى كيف حدث هذا ٠٠ انه مستحيل ! »

وبعد شهر ، أو حوالى الشهر ، أنبأت كل من تعرفه بالامر ، اللهم الا الكونتة « جيلبيرت » ، اذ صدها عن اخطارها حياء غامض ، رقيق ٠٠ وكان جوليان قد انقطع عن ارتياد مخدع زوجته منذ أنبأته بنبأ الحمل ، لكنه لم يلبث أن ارتضى - بعد فترة - الواقع الذى لا مفر منه ٠ ومع انه قال ساخطا : « هاهو ذا طفل يفد دون رغبة فيه ! » ، فانه لم يلبث أن جـدد علاقاته مع جان ٠ وحدث ماتوقعه القس ٠٠ وحملت !

واذ ذاك ، وفى نشوة الفرح ، أوصدت بابها دون جوليان الى الأبد ! وفى غمرة من الاعتراف بالجميل للقوة المقدسة الغامضة التى كانت تؤمن بها ، أقسمت منذ ذاك الحين أن تظل عفيفة ، طاهرة ، مدى الحياة !

وغدت سعيدة هانئة ، حتى لقد أدهشها ما أصاب حزنها لموت أمها من خبو سريع !٠٠ لقد ظنت انها لن تجد مايجعلها تسلو هذا الحزن ، فاذا الجرح قد اندمل ولما ينصرم شهران ٠٠ ولم يبق سوى أسى واهن ، كقناع شفاف نشر على حياتها٠ وأصبحت تعتقد ان لن تؤذيها بعد اليوم أحداث أخرى ، فلسوف يكبر ولداها ويغمرانها بالحب ، وسـوف تقضى شيخوختها فى دعة ، دون أن تولى زوجها لحظة من تفكيرها !

★ ★ ★

◆ **وحوالى** نهاية سبتمبر ، أقبل الأب بيـكو فى ثوب كهنوتى جديد ، ليقدم خليفته الأب « تولبياك » ، وكان شابا

صغير السن ، وقور المظهر ، تنم عيناه الغائرتان ، المحوطتان بهالات عميقة ، عن شخصية قوية عنيفة ٠٠

وكان القس المسن قد اختير اسقفا لـ(جودرفيل)،فأحست جان بحزن صادق لفراقه ، اذ كان وجهه يخالط كل احداث شبابها ٠٠ فهو الذى عقد قرانها ، وهو الذى عمد ابنها ، ووارى أمها التراب ٠٠ بحيث ماكانت لتستطيع أن تتصور الضاحية (آيتوفان) بدون وجهه السمح ، وهو يتنقل من مزرعة الى أخرى ٠٠ كانت تحب القس الشيخ لانه كان طيبا ، بسيط النفس ٠ ٠

غير انه لم يكن يبدو سعيدا رغم الترقية التى نالها ، حتى لقد قال لها : « **يشق على جدا فى الواقع ياسيدتى الكونتة أن أرحل ٠٠ فقد قضيت هنا السنوات الثمانى عشرة الماضية ٠ ان « الابرشية » فقيرة ، لاتدر رزقا كثيرا ، ورجالها ليسوا متمسكين بمبادىء الدين ، ونساءها هوائيات ، رعناوات ٠٠ فلا تأتى الفتيات الى لأزوجهن الا بعد أن يكن قد وقعن فى المحظور ! ـ اذ ليس لزهور العفة هنا ثمن يذكر ـ ومع ذلك ، فقد كنت سعيدا** »

فاحمر وجه القس الجديد لدى سماعه هذا القول ، وأبدى تبرمه ٠٠ ثم قال فجأة : « لا بد من أن يتغير كل هذا ! » ٠٠ وكان الاخير يبدو كطفل عنيد ، نحيلا ، ضعيفا ، فى ثوب الكهنوت الذى بدا نظيفا رغم قدمه ٠٠ ورمقه الأب بيكو من طرف عينه ـ وهى عادة درج عليها ، سيما حين تتملكه الرغبة فى السخرية ـ ثم قال : « لكى تمنع هذا أيها الاسقف ، يجب أن تحكم القيود على قطيعك ، ومع ذلك ، فلن يساعدك هذا كثيرا »

فأجاب القس الشاب فى لهجة حادة : « حسنا ٠٠ سوف نرى » ٠٠فابتسم الاسقف الشيخ وتناول قبضة من السعوط،

ثم قال : « لسوف تنضجك السن أيها الاسقف ٠٠ والتجارب كذلك ٠ ولن تجديك خطتك الا فى اقصاء المتقين عن الكنيسة ٠٠ هذا جل مافى الأمر ٠ ان الفلاحين فى هذه الاصقاع متدينون ، ولكنهم عنيدون ، فحذار ٠٠ **ولتعلم انني حين أرى فتاة منتفخة البطن تأتى للاستماع لمواعظى ، لا أملك سوى أن أقول لنفسى : « انها تجلب رعية جديدة للأبرشية » ٠٠ ثم أسعى لأن أزوجها ٠٠ انك لا تملك أن تصدهم عن الرعونة والطيش ، ولكنك تستطيع أن تذهب الى الرجل وتعمل على أن لايهجر أم الجنين ٠٠ زوجهم أيها الاسقف ٠٠زوجهم ولا تحمل هما بعد ذلك !** »

فأجاب القس الجديد فى حدة : « نحن على خلاف فى الرأى، فلا جدوى من الاستمرار فى الجدال »

ومن ثم شرع الأب بيكو يندب من جديد حرمانه منالقرية، والمحيط الذى يطل عليه من نوافذ بيته الملحق بالكنيسة ، والوديان المخروطية الشكل التى كان يردد فى رحابها صلواته ، وهو يرقب الأشرعة البيضاء عند الأفق البعيد ٠٠ ومالبث القسان ان نهضا متأهبين للانصراف ٠٠ وطبع الشيخ قبلة الوداع على جبين « جان » التى أحست بالدموع توشك أن تتبادر الى مقلتيها

وبعد أسبوع ، وفد الأب « تولبياك » على القصر مرة أخرى، وتحدث عن الاصلاحات التي سنها ـ كما لو كان أميرا يتولى الملك ! ـ ثم سأل الفيكونتة أن لاتتخلف عن قداس يومالاحد، وعن تناول القربان المقدس فى أعياد الكنيسة ٠٠ وقال يوضح رجاءه : « انت وأنا نرأس هذا المكان ، فلا بد من ان نسوس أموره ، وأن نكون قدوة لأهله ٠٠ كما انه لابد لنا من أن نتعاون كى نصبح أهلا للسلطة والحظوة بالاحترام ٠٠ واذا

سارت الكنيسة والقصر يدا فى يد ، فسوف تخشع الاكواخ وتطيع » !

* * *

◆ **وكانت** نظرة « جان » الى الدين تقوم على العاطفةوالفكر، فكانت تعتنق ذلك الايمان الحالم الذى لا تتخلى عنه امرأة ٠٠ واذا كانت قد ظلت تؤدى واجباتها الدينية ، فانما كان ذلك نزولا على حكم العادة التى اكتسبتها فى مدرسة الدير ٠٠ **وكانت فلسفة أبيها المتحررة قد قلبت معتقداتها رأسا على عقب منذ زمن طويل ، ومن ثم فقد قنع الأب « بيكو » منها بالقليل الذى كانت تبديه ، ولم يحاول يوما أن يلومها أو يؤنبها ٠٠ أما خليفته فقد بادر الى القصر ، حين افتقدها فى قداس يوم الاحد ، وقد اشتد استياؤه ٠٠ ولما كانت تكره أن تكون على شقاق مع رجال « الابرشية » ، فقد وعدته بأن تتردد على الكنيسة ، وان وطنت نفسها على التحلل من التزام عهدها هذا بعد الاسابيع القلائل الاولى ٠**

على أنها لم تلبث أن اعتادت التردد على الكنيسة شيئا فشيئا ، وانصاعت ـ دون أن تفطن ـ لنفوذ القس الناحل الجسم القوى التأثير والسيطرة ٠٠ فقد كان يرضى الجانب الروحى من فطرتها بغيرته وحماسته ٠٠ وكان يعرف كيف يوقظ العاطفة الدينية التى تكمن وسنانة فى نفس المرأة ٠ وكان زهده المتقشف ، وازدراؤه الدنيا وملاهيها ، واستهجانه الطموح البشرى، وحبه الله ، وشبابه وكبرياؤه اللذان تنقصهما التجربة ، وحديثه السديد الهدف ، وعزيمته التى لاتلين ٠٠ كل هذه كانت توحى لجان بصورة لما ينبغى أن يكون عليه الفدائيون الذين لا يضنون بتضحية فى سبيل مبادئهم ٠٠ ومن ثم فقد فتنت ، وهى المعذبة التى خابت أحلامها ، بما كان عليه هذا القس « الطفل » من تعصب وتطرف !٠٠ حدثها عن

المسيح ، وأوضح لها أن مباهج التقوى الدينية كفيلة بأن تخفف كل آلامها ، فكانت تركع فى مقصورة الاعتراف ، وتشعر بتضاؤل وضعف أمام هذا القس الذى كان يبدو كالغلام الحدث !

بيد ان المنطقة كلها لم تلبث أن كرهته ٠٠ اذ كان من فرط قسوته التى لاتلين مع نفسه ، متعنتا ، لا يتهاون مع الآخرين ! **ولم يكن يثير غضبه وسخطه سوى شيء واحد : الحب !٠٠ كان يحمل عليه من فوق المنبر بأقسى التعبيرات ٠٠ وكان يسرف في ذم خطيئة الشهوة، ويرتعد غضبا لما كان يتصوره بصددها من مناظر تذكي من حدة نقمته ٠٠**

وكان الرجال والفتيات يتبادلون حين يسمعون حملاته نظرات مختلسة خبيثة ، والكهول من الفلاحين الذين يحبون أن يسخروا من مثل هذه الامور ، ينتقدون مسلكه وهم يسيرون نحو بيوتهم مع زوجاتهم وأبنائهم عائدين من الكنيسة ٠٠

وثارت النفوس فى المنطقة كلها ، وأخذ الجميع يبدون تذمرهم من قسوة القس فى الاعتراف ، ومن ألوان التكفير الشاقة التى يفرضها ٠ وعند ما أبى فى عناد أن يمنح الغفران للعذارى اللواتى لم ترتفع عفتهن عن مستوى الشبهات ، ازداد كره رعاياه له ، وأخذوا يضحكون ساخرين كلما رأوا فى أثناء الصلوات المشتركة ، فى أيام الاعياد ، بعض فتيات يلزمن مقاعدهن فلا يذهبن الى « المائدة المقدسة » مع الباقين ٠٠ اعترافا منهن بأنهن خاطئات !

٠٠ بل انه لم يلبث أن عمد الى التجسس على المحبين والعشاق ـ كما يفعل الصياد الذى يريد أن يوقع فريسة فى شراكه ـ باذلا مجهودا فاشلا فى سبيل كبح جماحهم ! وصار

يطاردهم من « المخابىء » التى يلوذون بها ، ومن وراء مخازن الغلال في الليالى المقمرة ، وخلال الاحراش التي تنمو على سفوح التلال الصغيرة ٠٠ وذات مرة فاجأ عاشقين لم ينفصلا حين لاح لهما ، وكانا يسيران فى أخدود حجرى ، يتبادلان القبلات مع كل خطوة ، فصاح بهما : « هلا كففتما عن هذا أيها الاحمقان ! » ٠٠ ولكن الشابين لم يكترثا ، بل التفتا وصاحا من وراء ظهريهما : « الزم اختصاصك يا سيدى القس ٠٠ ليس هذا من شأنك ! »

وعند ذاك التقط بعض الطوب وأخذ يرميهما به ، كما ترجم الكلاب ٠٠ فجريا ضاحكين ٠٠ واذا به فى يوم الأحد



التالى يشهر بهما من فوق المنبر معلنا اسميهما ! ٠٠ فكان أن كف جميع الرجال عن التردد على الكنيسة منذ ذلك الحين !٠

★ ★ ★

◆ **وكان** القس يتناول غداءه فى القصر يوم الخميس من كل أسبوع ٠٠ كما كان كثيرا ما يفد عليه أيضا خلال الاسبوع ، ليتحدث الى ربة الدار التى أصبحت متحمسة في تقواها مثله ٠٠ فكانا يتناولان بالنقاش الامور غير المادية ، ويدرسان

الموضوعات الدينية المعقدة التى ما فتئت موضوع جدل منذ القدم .. فكانا يسيران فى « طريق البارونة » وهما يتحدثان عن المسيح والحواريين ، وعن العذراء ، وعن أساقفة الكنيسة ، كما لو كانا على معرفة بهم جميعا . ولقد يقفان أحيانا ، حين يثير أحدهما مسألة عويصة يأخذان فى مناقشتها فى فلسفة روحية .. وكانت جان تسوق للتدليل على آرائها حججا شاعرية أشبه « بالصواريخ » ، بينما كان القس ـ الذى كان عقله أكثر التزاما للمنطق ـ يجادل كعالم رياضى يحل معادلات « التربيع الدائرى » !

أما « جوليان » فكان يعامل القس الجديد فى احترام كبير ، ويردد دائما : « اننى أحب هذا القس ، فان الهزيمة لا تعرف اليه سبيلا » .. ومن ثم أخذ يتردد عليه ليفضى اليه باعترافاته ، ويتناول السر المقدس كلما ارتقب منه ذلك ، ضاربا بنفسه مثلا رائعا للآخرين ..

وكان الزوج فى تلك الاثناء يقضى كل يوم تقريبا مع الزوجين « دى فورفيي » ، يصيد مع الكونت الذى ازداد به ولعا ، ويخرج للنزهة على ظهور الجياد مع الكونتة مهما ساء الجو واشتدت الرياح ! .. وكان الكونت يشير الى ذلك في أحاديثه فيقول : « انهما مولعان بحب الركوب الى درجة الجنون ! .. على ان هذا يفيد زوجتى كثيرا » .

* * *

◆ **وعاد** والد « جان » من سفرته حوالى منتصف نوفمبر ، فاذا به قد تغير ، اذ بدا مكتهلا ، وكأنما أحنى ظهره الحزن الذى استبد بنفسه . وتضاعف شغفه بابنته ، وكأنما أذكت الاشهر القلائل التى قضاها فى وحدة موحشة ، من شوقه الى الحب والحنان . وتحاشت « جان » أن تذكر له آراءها ،

وصداقتها مع الاب « تونبياك » وتحمسها الدينى ٠ **على ان البارون لم يكد يلتقى بالقس للمرة الاولى ، حتى تملكته كراهية هوجاء له ! فلما سألته ابنته فى ذلك المساء : «ما رأيك فيه ؟ » ، أجاب : « ان هذا الرجل «محقق» ٠٠ أكثر منه قسا ! وأعتقد أنه شديد الخطر » ٠٠ حتى اذا علم البارون من الفلاحين مدى تعنت القس وعنفه ، وكيف يحاول أن يقمع قوانين الطبيعة والغرائز التى خلقت مع الانسان ، تضاعفت كراهيته له وتحولت الى عداء ! ٠٠ فقد كان من اولئك الفلاسفة الذين يعبدون الطبيعة ، وترق أحاسيسهم لمجرد رؤية ظواهرها** ٠ وكان يعتنق نوعا من الايمان بوحدة الله والكائنات ــ فللكون ألوهية بحكم وحدته مع الاله ــ وكان يتمرد على المذهب الكاثوليكى الذى كان يرى فيه تسليما بوجود اله يمتلك كل ما يمكن أن يتوفر فى أحد شيوخ « الجيزويت » من دهاء ، وما لأى طاغية من سلطان مهلك !٠٠ اله يستصغر فى ذهنه الخليقة الجبارة ، التى لا حد لها ، ولا حد لسلطانها وقوتها ٠٠ الخليقة التى هى الحياة والنور ، والارض والشمس ، والنبات ، والصخر ، والانسان ، والهواء ، والحيوان ، والنجم ، والله ، والحشرة ٠٠ كلها متحدة فى واحد ــ ولا يخلق الا لأنه خالق ، فالخلق أقوى من الارادة وفوق كل جدل ٠٠

٠٠ وانما كان الخلق ــ فى رأى البارون ــ يشمل كل النطف والأصول ، يتطور فيه الفكر والحياة كما تنمو الأزهار والثمار على الاشجار ، تنتج عن غير هدف ، وبلا سبب ودون قيد ، وفى كل شكل يخطر بالبال ، وفقا لضرورات الحظ ، وتقارب الشموس التى ترسل الدفء للكون ٠٠ وكان التناسل فى رأيه هو قانون الكون الاكبر ٠٠ العمل القدسى ، الجليل ، الالهى ، الذى يتحقق به الغرض المبهم ، الدائم ، للكائن الشامل العام ٠٠ (الذى يتحد فيه الله والكون) !

ومن ثم أخذ البارون يتنقل من مزرعة الى أخرى ، يشن حملة شعواء على القس المتعصب ، الظالم ! وأحزن جان تطور الامور على هذا النحو ، فراحت تتوسل الى أبيها أن يكف عن حملته ، وتصلى لله من أجل ذلك .. ولكن البارون كان لا ينفك يجيب على توسلاتها بقوله : « هذا الصنف من الرجال يجب أن يحارب .. هذا واجبنا وحقنا ، فهم ليسوا بشرا ! » وكان يهز شعره الأبيض الطويل ، ويردد مستطردا : « انهم ليسوا آدميين .. انهم لا يفقهون شيئا .. انهم يصدرون عن مبادىء زائفة .. انهم ضد الطبيعة » .. وكان ينطق بكلمتى « ضد الطبيعة » فى لهجة من يقضى بكفر امرىء ويلعنه !

وكان القس على دراية بهذا العداء ، لكنه آثر أن يتريث ، رغبة منه فى أن يظل باسطا نفوذه على « جان » والقصر ، مطمئنا الى أن الفوز النهائى سيكون من نصيبه . وكانت تحدوه أيضا فكرة ثابتة ، واضحة : فلقد كشفت له المصادفة عن العلاقة بين جوليان وجيلبيرت ، فرغب فى أن يوقفها بأى ثمن ! ومن ثم ذهب الى جان ذات يوم ، وبعد حديث روحانى طويل ، سألها أن توحد جهودها معه لسحق الشر المستشرى فى أسرتها ، وأن تساعده على انقاذ روحين ضالتين معرضتين للهلاك ! واذ عجزت عن ادراك ما كان يبغى منها ، سألته عن قصده ، فلم يجب بأكثر من قوله : « لم تحن الساعة بعد .. ولسوف ألقاك ثانية » ، ثم انصرف فجأة ..

* * *

◆ **وكان** الشتاء قد انتهى تقريبا .. وقد كان شتاء يانعا ، رطبا ، مطيرا .. وعاد القس ، بعد أيام ، فتحدث الى جان فى عبارات مبهمة عن علاقة خاطئة تقوم بين اثنين يجب أن يكون مسلكهما فوق كل مظنة .. وان من واجب كل الذين يفطنون

الى الواقع أن يعملوا على وقف هـذه العـلاقة بكل وسيلة ممكنة !٠٠ ثم اسـتدرجها الى وجـوب مراعاة « اعتبارات سامية » ، وأمسك بيدها وتوسل اليها أن تقصى قيود البشر الدنيوية عن عينيها ، لترى ما يجرى حولها ، ولتساعده فى القضاء على الشر !

وحدست فى هذه المرة حقيقة ما كان يرمى اليـه ، لكنها لاذت بالصمت ، اذ أفزعها التفكير فى كل ما قد يجلبه هذا على بيتها الوادع من شقاء ٠ ومن ثم آثرت أن تتظاهر بعدم الفهم٠ فلما رأى ذلك ، انطلق يتكلم دون ما قيد : « ان على واجبـا أليما لابد من أدائه يا سيدتى الكونتة ، ولست أجفل منه ٠ ان رسالتى على الارض تلزمنى بأن أبصرك بشيء عليك عبء وقفه ٠ ان زوجك على علاقة نابية بالسيدة دى فورفيي ! » ٠٠ فنكست « جان » رأسها فى عجز ، وحيرة ، واسـتسلام ٠٠ بينما استطرد القس يقول : « ما الذى تعتزمينه الآن ؟ »

فتساءلت مرتبكة : « وما الذى أستطيع أن أفعله يا سيدى الاسقف ؟ »

فأجابها فى خشـونة : « قفى فى طـريق هـذا الحب الخاطىء ! »

وانبثقت الدموع مدرارة من عينى « جان » ، وقالت فى صوت مثقل بالقنوط : « لقد خاننى من قبل مع خادم ، ولن يستمع لى اذا نصحته ٠٠ انه لم يعد يحبنى ، بل هو يسيء معاملتى بمجرد أن أبدى رغبة لا تروقه ٠٠ فماذا أفعل ؟ »

ولم يجب القس على سؤالها ، بل صـاح : « **اذن فأنت تساعدين على ذلك ٠٠ انك ترتضين مايفعل ، فأنت شريكة له! ٠٠ كيف يعيش الفسق تحت سقف دارك وتحتملينه ؟٠٠ كيف تقع الجريمة تحت بصرك فتشيحين عنها ؟٠٠ أزوجة أنت ؟ أمسيحية أنت ؟ أأم أنت ؟ »**

قالت باكية : « وماذا تريدنى أن أفعل ؟ »

- أى شيء الا أن تسمحى بمثل هذا العار ٠٠ أى شيء !٠٠ أتركى زوجك ٠٠ اهربى من هذا البيت الموبوء !

- ولكنى لا أملك مالا ياسيدى القس ٠٠ ولا جرأة ٠٠ ثم كيف اتركه وليست لدى قرائن تثبت اثمه ؟٠٠ اننى لا أملك أى حق فى هذا ٠٠

فنهض القس وهو يرتجف حنقا ، وقال : « **انك مطية للجبن ياسيدتى ٠٠ ماكنت احسبك هكذا ٠٠ انك لاتستحقين رحمة الله !** »

وعندئذ ، تهاوت « راكعة وهى تهتف : « أواه ، لا تنبذنى ٠٠ألا انصحنى ! »

فأجاب القس باقتضاب : « **افتحى عينى السيد « دى فورفيى » ، فهو الخليق بأن يحطم هذه الصلة** »

وملأها اقتراحه هذا جزعا ، فهتفت : « أواه !٠٠ انه يقتلنى ياسيدى القس ، فضلا عن اننى بذلك افضحهما وأشهر بهما ٠٠ أواه لا ٠٠ أى شيء الا هذا ! »

واذ ذاك رفع القس يده فى غضب ، كأنه يلعنها ، ثم قال : « **ابقى فى عارك وجرمك ، لأنك أكثر خطيئة منهما ٠٠ انت الزوجة المتواطئة فى الاثم ٠٠ لن تكون لى بهذا البيت علاقة بعد الآن !** »

وتركها وكل جسده يرتجف من فرط سخطه ،فتبعته«جان» الى خارج الحجرة ، متأهبة للانصياع ، شارعة فى تقديم الوعود، لكن القس وسع من خطاه متعجلا ، فى سورة من الغضب ، وهو يهز مظلته الزرقاء الكبيرة فى عنف ٠و فجأة ، لمح جوليان يقف قريبا من سياج المزرعة وهو يشرف على بعض العمال ،

فانثنى الى اليسار ليتخذ طريقه خلال مزرعة « كويار » ، وهو يردد : « دعينى يا سيدتى ٠٠ لم يعد لدى ما أقوله لك »

★ ★ ★

◆ وفى وسط الساحة ـ فى طريقه ـ كان ثمة جمع من أطفال المزرعة والدور المجاورة قد تكأكأوا حول حظيرة الكلبة «ميرزا»، يتتبعون بأبصارهم فى اهتمام حاد ، وصمت ، واستغراق مشغوف ، شيئا ما ٠٠ وكان البارون يقف بينهم ويداه معقودتان خلف ظهره ، يرقب هو الآخر ما يجرى ، وقد بدا كناظر المدرسة بين تلاميذه ٠٠ لكنه حين رأى القس ابتعد متحاشيا ان يلتقى به ٠ وكانت « جان » تلاحق القس قائلة : « امهلنى بضعة ايام يا سيدى القس ، ثم عد لتجدنى قدفكرت فى الامر ، فأنبئك بما استطيع أن أفعل ، وبما اعددت ، ومن ثم نتشاور فى الأمر »

وبلغا مكان الأطفال المتجمعين ، فتقدم القس بضع خطوات ليتبين ما كان يجتذب اهتمامهم ، فاذا الكلبة «ميرزا» تتمخض، وقد وضعت ستة من الجراء راحت تزحف حول أمها وهى تلعقها فى حنان ٠٠ وفى اللحظة التى انحنى فيها القس عليها ، برز جرو سابع ، فصفق الاطفال جميعا وهتفوا فى سرور « واحد آخر !٠٠ واحد آخر ! » ٠٠ كأنما كان المنظر مسرحية بالنسبة لهم ٠٠ مسرحية طبيعية لا تشوبها أية شائبة ٠ كانوا يرقبون مولد الجراء كما يرقبون تفاحا يسقط عن شجرة !

وبهت القس فى البداية ، ثم تولته نوبة من غضب جامح ، فأمسك بمظلته الكبيرة وانهال ضربا على رؤوس الصغار المحتشدين ، فتفرقوا مذعورين بقدر ما استطاعت سيقانهم ان تحملهم ، وقد استولى عليهم الذهول ٠٠ ولم يلبث القس ان وجد نفسه وحيدا مع الكلبة التى كانت تحاول ان تستوى على أقدامها ، **فلم يدع لها فرصة للنهوض ،بل شرع يضربها بجماع**

قوته ·· وعجزت الكلبة عن الهرب ، اذ كانت مشدودة الى حظيرتها ، فأخذت تئن فى ألم بالغ تحت ضرباته ، حتى تحطمت المظلة ! واذ فقد القس سلاحه ، تحول يطأها بقدميه فى عنف مهشم ، ساحق ·· ثم اكمل بكعب قدمه القضاء على الجسد الممزق الدامى الذى استمر يتلوى فى اختلاجات متوجعة ، بينما كانت الجراء الوليدة تسعى فى عماها وحيرتها ، بحثا عن قوت !

وكانت « جان » قد فرت مذعورة من هول ما رأته ، وفجأة أحس القس بقبضة قوية تلتف حول عنقه ، وطارت قبعته فى الهواء ·· وجره البارون فى هياج شديد الى السياج ، ثم ألقى به فى عرض الطريق · وعندما التفت السيد « لوبرتيوس » أبصر ابنته راكعة بجوار الكلاب الصغيرة ، تجمعها فى ثوبها وهى تبكى · فسار اليها وهو يصيح ويلوح بيده فى غضب : « **هذا هو رجل الدين ! ·· أرأيته الآن على حقيقته ؟** »

وأقبل عمال المزرعة يشهدون الكلبة القتيل · وصاحت الأم « كويار » : « **كيف قدر له أن يكون على هذه الدرجة من الوحشية ؟** »

والتقطت « جان » الجراء السبعة وأعلنت أنها ستتولى تربيتها ·· وحاولت أن تقدم لها بعض اللبن ، بيد ان ثلاثة منها ماتت فى اليوم التالى · واذ ذاك انطلق الأب سيمون ينقب فى المنطقة عن كلبة مرضعة ، فلما لم يجد ، احضر قطة قال انها تصلح لارضاع الصغار ·· لكن ثلاثة أخر من الجراء لم تلبث أن ماتت ، فعهدوا بالجرو السابع الى قطة أخرى وجدوها له ·· فتبنته القطة لفورها ، وكفلته فى عناية بالغة ··

وفطم الجرو بعد اسبوعين ، كى لا يثقل على الأم التى تبنته ، وقررت « جان » أن تربيه على الرضاعة من زجاجة · وأسمته « توتو » ، بيد ان أباها استخدم نفوذه ليغير اسمه ، فجعله : « سلوتر » ·· أى الذبيح !

* * *

ولم يعد القس الى القصر ثانية ٠ وفى يوم الأحد التالى ، صب لعنته ونقمته من فوق المنبر على اسرة البارون ، فهاجمها فى صوت جهورى ،قائلا ان من الضرورى اجتثاث جذور الشر! ٠ ورغم ان البارون وجد فى هذه الحملة تسلية لذت له ، فان اشارة القس ـ بعبارات مستترة ـ الى علاقة « جوليان » الجديدة ، أثارت هذا الأخير ، وجعلته يعمد الى تهدئة ثورة القس ، خشية الفضيحة !

وأخذ القس يعلن فى كل عظة بعد ذلك ، أن ثأره لن يضيع، وان يد الله لن تلبث ان تهوى على كل اعدائه ! ٠٠ فكتب « جوليان » شكوى مفعمة بالاحترام ، وان تكن حازمة ، الى الأسقف الأعلى ، الذى انذر الأب « تولبياك » بالفصل ! ٠٠ وعلى اثر ذلك لاذ الأخير بالصمت ٠ وأصبح بعد ذلك يرى فى نزهات طويلة فى الريف ، بمفرده ، وعلى وجهه أسارير الغيظ ٠ وكانت جيلبيرت وجوليان يريانه كل يوم وهما منطلقان على صهوتى جواديهما ، يبدو لهما كبقعة سوداء فى الحقل ، أو على حافة التل الجيرى المشرف على البحر ، او منصرفا الى قراءة صلواته فى احد الوديان الصغيرة ، فكانا يدفعان جواديهما عن طريقه ليتحاشياه !

وكان الربيع قدأقبل ،تصحبه وقدة العواطف،فكانت الكونتة وجوليان يلتقيان كل يوم ، آنا هنا وآنا هناك ، تحت الحجب التى تهيئها الغابة لمن يلجأ اليها ٠ واذ كانت أوراق الاشجار لا تزال قليلة ، خفيفة ، والعشب نديا رطبا ، ومن المحال ان يكونا فى مأمن تام من الأعين فى داخل الغابة ، فقد لاذا بكوخ من أكواخ الرعاة خلفه اصحابه منذ نهاية الخريف على قمة تل « فوكوت » ٠ وكان الكوخ متنقلا ، اذ أقيم على عجلات ، وقد ترك مهجورا فى هذه البقعة الواقعة على بعد نحو خمسمائة متر

من التل الجيرى ٠٠ ولم يكن العاشقان يخشيان ان يفاجئهما فيه احد ، اذ كانا يكشفان منه السهل بأسره ٠ وكان جواداهما ينتظران انصرافهما من الكوخ فى صبر ، وقد ربطا الى قوائمه ٠

وفيما كانا يغادران مخبأهما ذات يوم ، لمحا القس جالسا بين الأعشاب البرية النامية على التل ٠٠ فقال جــوليان : « سنضطر الى ان نترك جوادينا فى المستقبل فى الوهدةالمنخفضة لأنهما قد يكشفان مخبأنا للقادم من بعيد ! » ٠٠ واخذا منذ ذلك الوقت يربطان الجوادين فى درب مستتر بين الأشجار ٠٠

واذ كانا عائدين معا ذات مساء الى قصر «لافريليت» ليتناولا العشاء مع الكونت ، التقيا بأسقف (ايتوفان) مقبلا من القصر ، فتنحى عن الطريق لهما ، ورفع قبعته دون ان ينظر اليهما ، فساورهما شعور قلق ، لم يلبث ان زايلهما بعد قليل ٠٠

★ ★ ★

♦ **وفى** أصيل ذات يوم ، كانت « جان » تجلس امام المدفأة ـ اذ كان البرد قــد اشتد فجأة ـ فاذا بهــا تلمح الكونت « دى فورفييى » يسير فى عجلة نحو القصر ، فجال بخاطرها فى الحال ان امرا رهيبا قد حدث !

وبادرت الى استقباله ، فما ان رأت وجهه حتى خيل اليهــا انه قد اصيب بالخبل ، فقد كان يرتدى قلنسوة كبيرة من فراء لم يكن يلبسها فى العادة فى غير البيت ، وسترة الصــيد ٠ وكان شديد الشحوب ، حتى لقد بدا شــارباه ـ اللذان كانا يتسقان عادة مع بشرته الشديدة الحمرة ـ كجمــرة من نار ، وأخذت عيناه تتحركان فى محجريهما فى هياج !

وتساءل متلعثما : « **أظن زوجتى هنا ٠٠ اليست كذلك ؟** » فجزعت « جان » واضطربت ، ثم أجابت : « **لا ٠٠ لم أرها اليوم** »

واذ ذاك جلس ، كشخص تخاذلت ساقاه تحتـــه ، ونزع قلنسوته بحركة آلية ، ومسح جبينه عدة مرات بمنديله ٠٠ ثم قفز واقفا وسار الى « جان » باسطا ذراعيه ، وقد انفرجت شفتاه كأنه يهم بأن يتكلم فيفشى سرا رهيبا ٠٠ ولكنه توقف فجأة ، وحدجها بنظرة ثابتة ، ثم قال متلعثما كمن يهذى : « **ولكن ٠٠ ولكن زوجك ٠٠ وانت أيضـا ٠٠** » ، ثم اندفع خارجا فى اتجاه المحيط ٠٠ وهرعت « جان » فى اثره خافقة القلب ، تناديه ، وتضرع اليه ، وهى تقول لنفسها : « **لقـد كشف الامر ! ٠٠ ترى ماذا هو فاعل ؟ ٠٠ اواه ! ٠٠ ليتـه لا يجدهما !** »

ولكنها لم تستطع اللحاق به ، فى حين انه اصم اذنيه عن سماع ضراعاتها ، واخذ يعدو غيرمتردد ، وهو واثق من مقصده، ويقفز عبر الوهاد ، ويجتاز الأحراش ، حتى بلغ فى النهاية التل الجيرى ٠ وظلت « جان » ترقبه فترة طويلة من أســفل السفح ، حتى اذا غاب عن بصرها ، كرت عائدة بقلب مثقل ٠٠

أما هو ، فقد انحرف الى اليمين ، وشرع يجرى ٠٠ وكان الزبد يكسو سطح البحر بطبقة بيضاء ، وثمة سحب قاتمـة تسبح فى السماء ، وتغرق الساحل بالمطر ٠ واخـذت الريح تعوى وتئن وهى تلوى رقاب المحصول الجديد والأعشاب البرية وتحمل الى البر طيورا بيضاء كبيرة تبــدو ككتل هائلة من الجليد ٠٠

وصفعت قطرات المطر وجه الكونت ، وبللت خديه وشاربيه اللذين تدليا على فمه ، وملأت اذنيه بالضجيج ، وافعمت قلبه باضطراب صاخب ٠٠ وكان وادى (فوكوت) يستلقى امامه، لا يلوح للبصر فيه سوى كوخ من أكواخ الرعاة ، قام فى مرعى مهجور ٠٠ والى قوائم الكوخ المتحرك ، ربط جوادان ، وكأنما اطمأن صاحباهما الى انه ليس ثمة ما يخشيان ان يعكر صفوهما فى مثل هذه العاصفة !

وما ان لمح الكونت الجوادين ، حتى زحف على يديه وركبتيه نحو الكوخ ، وقد بدا بجسمه الضخم ، وردائه المكسو بالوحل، وقلنسوته الفرائية ، اشبه بوحش هائل ٠٠ ومضى يزحف هكذا نحو الكوخ المنفرد ، دون ان يجرؤ على رفع هامته خشية أن يراه من فى الكوخ خلال شقوق جدرانه الخشبية ! ٠٠ واذ رآه الجوادان ، ساورهما القلق ، فبادر الى قطع عنانيهما بمدية مشرعة كانت فى يده ٠٠ وهبت على الكوخ فى تلك اللحظة نفحة من ريح باردة ، فانطلق الجوادان يركضان وقد لذعهما البرد الذى كان يتساقط على سقف الكوخ المنحدر ، فيجعله يهتز ويتأرجح على عجلاته الكبيرة ٠٠



وما لبث الكونت ان استوى على ركبتيه ، وألصق عينيه بالشق الذى يفصل بين الباب والجدار ، وتطلع الى ما كان يجرى فى الداخل ٠٠ لكنه لم يتحرك ، بل ظل ساكنا يمسك انفاسه٠ وانقضى بعض الوقت ، ثم نهض وقد جلله الوحل من رأسه الى قدميه ٠٠

وفى حركة محنقة ، دفع المزلاج الذى يغلق الباب من الخارج ، فأوصده على من فيه ، ثم امسك بذراعى الكوخ اللتين يربط اليهما فى العادة الجواد الذى يجره ، وراح يهز الكوخ كما لو كان يحاول ان يهشمه الى ألف قطعة ٠٠ **وفجأة ، توسط الذراعين ، ومال بجذعه الى الامام فى جهد المستميت ، ثم دفع الكوخ بقوة تعادل قوة الثور ، فانفلت يجرى على عجلاته بمن فيه نحو السفح المنحدر الى البحر ٠٠ وتصاعدت من جوفه صرخات وطرقات ــ وما كان جوليان والكونتة ليدريا ما أصاب كوخهما ! ــ حتى اذا بلغ الكونت الذروة التى تسبق المنحدر ، ترك ذراعى الكوخ ، ثم دفعه بجماع قوته ، فانحدر الى الهاوية!**

ورأى شريد طاعن فى السن ــ كان يقبع فى احدى الحفر ــ الكوخ وهو يمر من فوقه ، وسمع صرخات مروعة تنبعث من جوفه ٠٠ وعلى حين غرة ، فقد الكوخ الخشبى احدى عجلاته ، فمال على احد جوانبه وهو يتابع انحداره ، كمنزل اجتث من فوق جبل واخذ يهوى من عل ٠٠ واذ اعترضه آخر نتوء فى طريقه ، طار فى الهواء ، ثم هوى الى القاع ٠٠ فتهشم كقشرة بيضة !

***

◆ **وما** ان بلغ الأرض ، حتى هبط الشريد الذى كان يرقبه ، متسللا بين الاعشاب الكثيفة الى حيث استقر ٠٠ ولكن واعزا من اعماقه منعه ان يقترب من الكوخ المحطم ، بل سار الى اقرب مزرعة يعلن نبأ الحادث ! ٠٠ فهرع عمال المزرعة الى موقعه

لفورهم ، ورفعوا الألواح عن حطام الكوخ ، فوجدوا جثتين مهشمتين ، داميتين ٠٠ وكان رأس الرجل قد شج ، وتشوه وجهه ٠٠ أما المرأة فقد تدلى فكها اذ انتقل لفرط عنف السقطة من مكانه ٠٠ وبدت اطرافهما المتشابكة طرية ، كأنما غابت العظام تحت لحمها ٠٠ ومع ما أصاب شكل الجثتين من تشوه ، فقد عرف صاحباهما ، وشرع كل امرىء يحدس سبب الكارثة ٠٠ وتساءلت احدى النساء :

ـ ترى ما الذى كانا يفعلانه فى هذا الكوخ ؟

واذ ذاك شرع الشريد المسن يروى لهم انهما ، على ما يبدو ، قد لاذا بالكوخ فرارا من العاصفة ، ولعل الريح القوية قد دفعته نحو السطح ! ٠٠ ثم أضاف قائلا انه كاد يلج الكوخ ، لولا ان رأى الجوادين مربوطين الى قوائمه ، فاستنتج انه مشغول ٠٠ واستطرد قائلا بتعبير يثير الضحك : « ٠٠ ولولا هذا ، لكان الحادث من نصيبى » !

وانبعث صوت يقول : « لعل ذلك كان افضل ! » ٠٠ فانفجر الكهل فى سخط مرير : « لم كان ذلك أفضل ؟ ٠٠ ألأننى فقير وقد كانا ثريين ؟ ٠٠ انظروا اليهما الآن » ٠٠ وأشار الشريد بعصاه المعوجة الى الجثتين ، وهو يرتجف فرقا ، والماء يقطر من اسماله ، ولحيته المشعثة ، وشعره الطويل الذى تهدل من تحت قبعته الزرية ٠٠ ثم استأنف قائلا : « كلنا ازاء الموت سواء ! »

وازداد عدد الفلاحين الذى تجمعوا ، ووقفوا ينظرون الى الجثتين وعلى اساريرهم امارات الجبن ، والانانية ، والقلق ، والمكر ٠٠ وتشاوروا جميعا فيما ينبغى ان يعمل ، وأخيرا قرروا ان يحملوا الجثتين الى قصرى صاحبيهما ٠٠ طمعا فى جزاء !

ومن ثم اعدت لهذا الغرض عربتان ٠ بيد ان مشكلة أخرى أثيرت ٠٠ فقد رغب البعض فى ان ينثروا بضع حزم من القش

فى قاع العربتين كلتيهما ، بينمارأى الباقون ـ بدافع من احترام الموتى ـ انه يجمل بهم ان يستخدموا حشيتين بدلا من القش٠٠ وهنا صاحت المرأة التى تكلمت من قبل : « ولكنهما ستتلوثان بالدماء ٠٠ وسيغدو من الضرورى غسلهما فى ماء (جافيل)

واذ ذاك قال مزارع بدين ، ذو وجه ممتلىء ، سمح : « اذن فلا بد لأهلهما من ان يدفعوا ثمن الحشيتين ٠٠ وكلما ارتفع قدرهما ، وجب ان يرتفع الثمن الذى يدفع » !

وكان اقتراحه الفاصل فى الجدل ٠٠ وما لبثت العربتان ذاتا العجلات الكبيرة ـ واللتــــان لم تزودا بزنبركات تخفف الاهتزازات ـ ان انطلقتا ببقايا العاشقين ، وقد اتجهت احداهما يمينا ، والاخرى يسارا ٠٠

* * *

◆ **أما** الكونت ، فكان قد بادر الى الفرار بقدر ما أسـعفته ساقاه من سرعة ، بمجرد أن رأى الكوخ يقفز فى فضاء الهوة٠٠ وانطلق يدوس الحشائش فى الاحراش ، ويقفز فوق الحفـر ، ويجتاز الطرق ، حتى وصل الى القصر مع مغرب الشمس ،دون أن يدرى كيف وصل !

وكان الخدم المفزوعون ينتظرونه لينبئوه بأن الجوادين قـد عادا دون راكبيهما ـ وكان جواد جوليان قد تبع جواد جيلبيرت الى القصر ـ فقال الكونت « دى فورفيى » مضطربا : « لابد ان امرا قد جرى لهما ٠٠ فليخرج الجميع للبحث عنهما »

ثم غادر القصر مرة اخرى ،بيد انه لميكد يغيب عن الابصار، حتى اختفى فى دغل واخذ يرقب ٠٠ يرقب عودة المرأة التى ما زال يحبها فى وجد طاغ ، والتى لن تلبث ان تحمل الى الدار ميتة ، أو محتضرة ، أو عاجزة مشوهة ما بقى لها من عمر !

وسرعان ما مرت به عربة تحمل شيئا غير عادى ، ووقفتامام أبواب القلعة ، ثم دخلتها ٠٠ اجل ، كانت هى ٠٠ هى ٠٠ بيد

أن أسي جبارا سمره الى الارض ، وشل حراكه خوف رهيب من الحقيقة ، فلم يملك سوى ان يجفل مذعورا لأتفه صوت ، كما تجفل الأرانب الجبلية !

وتريث ساعة او اثنتين ، ولم تكن العربة قد غادرت القصر بعد ٠٠ وتخيل زوجته تحتضر ، فاذا مجرد التفكير فى رؤيتها ، والتعرض لنظراتها ، يفعمان نفسه بذعر مفاجىء ضاعف خوفه من افتضاح امره ، او الاضطرار الى ان يشهد عذابها ٠٠ ففر الى الغابات ٠٠ ثم خطر له انها ربما كانت فى حاجة الى مساعدته، وانها ربما لم تجد من يسعفها ، فاندفع نحو البيت ثانية ٠٠

واذ شارفه ، التقى بالبستانى ، فصاح به : « هل من نبأ ؟ » ٠٠ **ولم يجرؤ الرجل على الرد ، فعاد الكونت دى فورفيى**



يصيح فى صوت كان أقرب الى العويل : « هل ماتت ؟ » ٠٠ فأجاب الرجل : « اجل يا سيدى الكونت » ٠٠ واذ ذاك أحس بارتياح غامر ! ٠٠ وسرت فى دمه وعضلاته المتوترة ، سكينة سابغة ، فسار بخطى ثابتة ثم صعد درجات السلم الواسع ٠٠

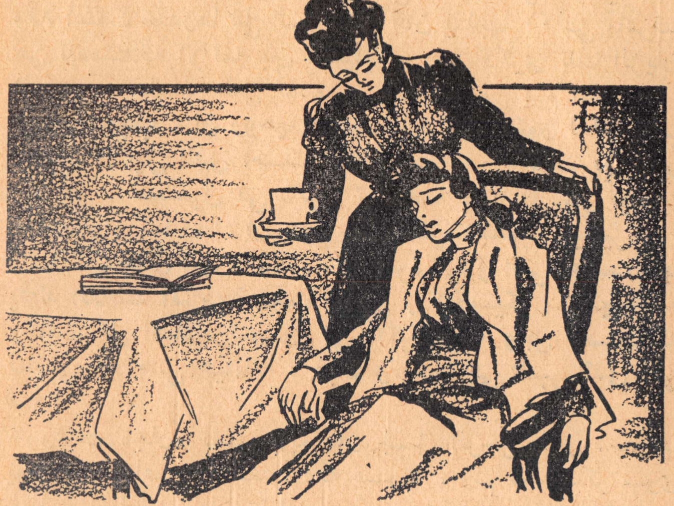
★ ★ ★

◆ **وكانت** العربة الاخرى قد بلغت ضيعة «أشجار الحور»٠٠ ورأتها «جان» وهى تقترب ، ولمحت الحشية ، فحدست أن ثمة جثة ترقد عليها ، وأدركت ما حدث ! ٠٠ وكان خوفها وفزعها ، من القوة بحيث انهارت على الارض فاقدة الرشد ٠٠ **فلما عادت الى وعيها ، كان أبوها يحتضن رأسها ويبلل جبينها بالخل ٠٠ وسألها مترددا : « هل عرفت ؟ » ٠٠ فهمست : «أجل ياأبت!» ٠٠ ورغبت فى النهوض ، لكن آلاما قاسية شلت حراكها وأبقتها فى مكانها**

وفى تلك الليلة ، وضعت جان مولودها ٠٠ ميتا ! ٠٠ وكان المولود بنتا !

٠٠ ولم تشترك فى تشييع جنازة «جوليان» ولا عرفت شيئا عنها ٠٠ وتبينت بعد يوم أو يومين أن الخالة «ليزون» قد عادت ٠٠ وراحت «جان» فى بحران الحمى تحاول جاهدة أن تتذكر متى بارحت العانس العجوز قصر « الحور » ، وفى أية ظروف كان رحيلها ٠٠

ولكنها لم تستطع أن تصل الى تفسير مقبول ، حتى فى لحظات صفاء ذهنها ٠٠ كل ما تذكرته هو أنها رأتها عقب موت أمها !



الفصل الحادى عشر

• **لزمت** «جان» خلال الاشهر الثلاثة التالية غرفتها ، وقد شحب لونها ، وأصابها ضعف شديد ، حتى ظن الجميع أنها لا بد هالكة ٠٠ بيد أن قواها لم تلبث أن عاودتها تدريجا ٠ وكان أبوها والخالة «ليزون» يلازمانها دائما ، وقد أصبحا يقيمان فى قصر «الحور» ٠٠ وخلفت لها الصدمة مرضا عصبيا ، فكانت تفقد رشدها لأتفه حركة ٠٠ وتغيب فى نوبات طويلة ، تعتريها لأبسط الاسباب ٠٠

٠٠ ولم تسأل قط عن موت جوليان ، اذ ما الذى كان يعنيها منه ؟ ٠٠ أو لم تكن تعلم عنه الكثير الذى يكفيها ؟ ٠٠ لقد كان

كل انسان يظنه « حادثا » ، أما هى فكانت تعرف الحقيقة ٠٠ وقد أغلقت صدرها على السر الذى كان يعذبها ٠٠ على ماعرفته عن العـــلاقة الآثمة بين القتيلين ، وعلى ذكرى تلك الزيارة القصيرة العاصفة التى تلقتها من الكونت فى يوم الكارثة !

ومن عجب ، أن روحها فاضت بذكريات حنون لذلك الحب القصير الأجل الذى أحسته نحو زوجها ٠٠ وكانت بين الحين والآخر ، تستغرق فى ذكرى تواتيهـا بغتة على غير توقع : كانت تراه كما اعتاد أن يلوح خلال فترة الخطوبة الوجيزة ٠٠ وكما كان خلال شهر العسل ، فى المرة الأولى التى أحست فيها يقظة العاطفة المتأججة تحت شمس (كورسيكا) الملتهبة ٠٠ وكانت كل أخطائه تتضاءل فى ذاكرتها ٠٠ وكل جفـــوته تتلاشى ٠٠ حتى خياناته ، خبت وتوارت فى القبر الذى دفن فيه !

وغدت «جان» تحس بالعرفان لجميل الرجل الذى احتواها يوما بين ذراعيه ٠٠ فغفرت له قسوته ، ولم تعد تذكر سوى لحظات الهناءة فى حياتهما الزوجية٠٠وما لبثت مع مرورالزمن ، ومع توالى الايام والشهور ، أن أسدلت على أحزانها وذكرياتها ستارا ، وكرست نفسها نهائيا لتربية ابنها ٠

★★★

◆ **ونشأ** الصغير معبودا من أمه ، وجده وخالة أمه ٠٠ كان قبلة حياتهم ، وكان يستعبدهم كحاكم مطلق مستبد ! ٠٠ بل أن نوعا من «الغيرة» نشأ بين هؤلاء «العبيد» الثلاثة ، فقد كانت «جان» تستشعر انفعالا شاذا كلما رأته يحتضن جده بعد أن يكون هذا قد أرجحـــه على ركبتيه ٠٠ وكانت الخالة ليزون ــ التى أهملها الطفل فى غير اكتراث ، كما كان يفعل كل فرد آخر ، والتى كان يعاملها أحيانا كما لو كانت خادما ، رغم أنه لم يكن قد عرف بعد كيف ينطق ! ــ كانت الخالة ليزون تحبس

نفسها فى غرفتها وتبكى ما كانت تلتمســه منه من المظاهر التافهة للحب ، فى الوقت الذى كان فيه الصغير لا يبدى حبا لغير أمه وجده !

ومر عامان لم يتخللهما حادث يذكر ٠٠ ومع مطلع الشتاء الثالث ، قررت الاسرة الانتقال الى (روان) حتى بداية الربيع ومن ثم حزم أفرادها جميعا متاعهم ، وغادروا قصر « أشجار الحور » ٠ بيد أنهم لم يكادوا يصلون الى البيت الرطب المهجور، حتى أصيب «بول» بنزلة شعبية شديدة الوطأة ، حتى لقد خيف أن تتطور الى التهاب رئوى ، ومن ثم قرر أهله أنه لن يقدر له أن يتحسن وينتعش فى أى مكان غير الريف ، فلم يكد يتماثل للشفاء ، حتى عادوا الى قصر «الحور» ثانية ٠٠

واذ ذاك بدأت سلسلة من الاعوام الهانئة ، الهادئة٠٠فكانوا دائما يجتمعون حول الطفل ، فى غرفته أحيانا ، أو فى غرفة الجلوس ، أو فى الحديقة ، فيمضون فى الضحك من لثغته ، وأحاديثه الفكهة ، وحركاته ٠٠ وكانت أمه تدعوه فى تدليل « بوليه » ، ولم يكن يعرف كيف يلفظ الكلمة ، فكان ينطقها فى تحريف يقربها من الكلمة الفرنسية التى تعنى «كتكوت»٠٠ الامر الذى لم يخفق قط في اثارة عواصف من الضحك ٠ وعلق بالصغير هذا الاسم الجديد ، فلم يكن ينادى بعد ذلك الا به !

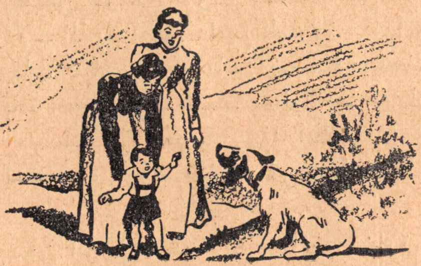
واذ كان الصبى سريع النمو ، فقد غدا من ألوان التسلية لأقاربه الثلاثة ــ الذين أطلق عليهم البارون «أمهاته الثلاث» ــ أن يقضوا أوقات فراغهم فى قياس نموه ٠٠ فحفروا لهــذا الغرض على باب حجرة الجلوس ــ بمطواة ــ علامات تشير الى ازدياد طوله من شهر الى آخر ٠٠ وقد أطلقوا على هذا المقياس « مقياس الكتكوت » ، وجعلوا له فى حياتهم اليومية مكانة هامة !

وبعد فترة من الزمن ، ظهر في حياتهم مخلوق جديد لعب

دورا هاما فى الاسرة ٠٠ ذلك هو « الذبيح » ـ «سلوتر» ـ الكلب اليتيم ، الذى كانت «جان» قد أسرفت فى اهماله ، اذ انصرفت بكل نفسها وحواسها الى ابنها ، فصار الكلب يوثق دائما الى حظيرته أمام مخزن الغلال ، يعيش فيها كالناسك ، لا يعنى به ويغذيه غير الطاهية « لوديفين » ٠٠ حتى حدث أن لاحظ « بول » الكلب ذات صباح ، فبكى كى يسمحوا له بأن يربته ، ومن ثم أخذوه الى الحيوان فى شىء من الغضاضة والمضض ٠لكن الكلب استقبل الطفل بفيض من مظاهر الود ، كما أحس الطفل ميلا كبيرا الى الكلب ، وأخذ يصرخ معارضا حين آن لهم أن ينصرفوا به عنه ، ومن ثم فك قياد «سلوتر» ، وسمح له من ذلك الحين بأن يعيش فى داخل القصر ٠

وأصبح الاثنان لا يفترقان : يلعبان معا ، ويتمرغان سويا على السجاد ، وما لبثوا أن أذنوا لسلوتر فى أن ينام فى سرير رفيقه الصغير ، الذى كان يأبى أن يفترق عنه لحظة ٠٠ وكانت «جان» تحاول أن توهن من هذه الصداقة ، خشية البراغيث ! ٠٠ بينما لم تغفر الخالة «ليزون» للكلب أن نال كل هذا القدر من ود الصغير ، وقد كانت هى به أولى !

وكانت الاسرة تزور فى فترات متباعدة أسرتى « دى بريز فيل » و « كوتلييه » ، ولكن لم يكن يتردد على القصر بانتظام سوى العمدة والطبيب ٠٠ ولم تدخل «جان» الكنيسة منذ مقتل



الكلبة «ميرزا» ، والنهاية الرهيبة التى لقيها «جوليان» و«جيلبيرت» اذ ساورتها الريب فى القس الذى كانت وشايته سببا فى الكارثة ! وكانت تحس باستنكار لأن يكون لله مثل هذا الخادم .. **أما هو فكان يحمل من آن الى آخر على القصر فى قسوة ، ويعلن أن روح الشر .. روح العصيان الخالد .. روح الخطأ والزيف .. روح الاثم .. روح الدنس والفساد ، قد سكنته ! ـ وكانت هذه هى الالقاب التى خلعها على البارون !**

وكانت كنيسته قد غدت ـ فى الواقع ـ مهجورة ، وكان اذا جاس خلال الحقول والفلاحون يحرثونها ، لم يتوقف أحدهم عن عمله ليتحدث اليه ، ولا التفت أحد نحوه أو انحنى له ، فقد داخل الجميع الظن بأنه يمارس السحر ، لأنه طرد الروح الشريرة مرة من جسد امرأة ! .. ولأنه كان يعرف الكلمات التى تقضى على ما يعمل للماشية والناس من أعمال سحرية ، اذ كان ينظر الى هذه النوبات على أنها عبث من الشيطان . وكان يكفى أن يضع يده على البقرة التى تدر لبنا أزرق ، أو التى يلتوى ذيلها ، ثم يهمهم ببضع كلمات غامضة ، فاذا كل شىء يعود سيرته الاولى !

وكان ضيق عقله وتعنته المتهوس قد اقترنا بتحمسه العارم، مما قاده الى دراسة الكتب الدينية التى تبحث فى الصور التى يظهر بها الشيطان للناس ، وفى مختلف مظاهر قوته ، وفيما له من ألوان النفوذ المتباينة ، ما يرى منها وما لا يرى،وفيما له من موارد ومن حيل ! .. واذ كان القس يخال أنه قد بعث خصيصا لمكافحة هذه القوة الغامضة ، الخطرة ـ قوة الشيطان ـ فقد جهد فى حفظ كل التعاويذ التى وردت فى الكتب الكنسية .. وكان يعتقد بأن روح الشر تكمن فى الظلام، فلاينفك يتمتم بالتعاويذ .. ومن ثم انتشر بين الفلاحين الخوف من قوته الخفية .. بل ان زملاءه من كهنة الريف الجهلة الذين كانوا يؤمنون

بقبليس ايمانهم بالله ، والذين أساءوا فهم ما ورد فى كتبهم من أوصاف الطقوس التى تتبع اذا ما أظهر الشيطان نفوذه ، ومن ثم خلطوا بين الدين والشعوذة ٠٠ حتى هؤلاء اعتبروا الاب «تولبياك» ساحرا ضليعا ، ولعلهم ازدادوا له احتراما ، لما عزوه اليه من قوة ، ولما كان يأخذ به نفسه من حياة منيعة ، متقشفة

ولم يعد « الأب » ينحني محييا « جان » اذا ما تقابلا ٠٠ فأزعجت هذه الحال الخالة ليزون ازعاجا كبيرا ، اذ لم تكن لتتصور - في نفسها العانس الساذجة - كيف يمكن للمرء أن يعيش فى منأى عن الكنيسة ٠ وكانت دون شك تقية ، ولكن أحدا لم يعلم بذلك أو يحاول أن يعلم ٠٠ وكانت اذا وجدت نفسها وحيدة مع «بول» حدثته عن الله ، فكان ينصت اليها فى شغف وهى تروى له قصص المعجـــزات التى اكتنفت بداية الدنيا ، ولكنه كان يجيبها أحيانا اذا قالت انه يجب أن يحب الرب حبا قويا : « أين هو يا خالتاه ؟ » ٠٠ وعندئذ كانت تشير الى السماء باصبعها وتجيب قائلة : « انه هناك ، فى السماء يا «بوليه» ، بيد أنه لا ينبغى لك أن تتحدث بهذا لأحد » ، فقد كانت تخاف البارون الى درجة كبيرة ٠٠ على أن « الكتكوت » فاجأها ذات يوم بقوله : « ان الرب موجود فى كل مكان ، عدا الكنيسة » ٠٠ وأدركت أن الصبى أنبأ جده بالأحاديث التى سمعها من خالته !

★★★

◆ **وناهز** «بول» العاشرة ، بينما أصبحت أمه تبدو كما لو كانت فى الاربعين ٠٠ وكان قوى الجسم ، كثير الضجيج ، على استعداد دائما لأن يتسلق أية شجرة ، لكنه كان يعزف عن حفظ دروسه ، وكان اذا أسأمتــه هذه الدروس أهملهــا فى بساطة ! ٠٠ **وكلما استبقاه جده أمام كتاب ، فترة أطول من المعتاد ، كانت جان تقول : « ألا دعه يلعب » فما ينبغى أن**

نتعبه ٠٠ انه لا يزال صغيرا ! » ٠٠ كانت تتوهمه دائما ابن عام واحد ، وكأنها لا تلحظ أنه يمشى ، ويجرى ، ويتكلم فى لهجة الغلام الناضج ٠٠ وكانت تعيش فى خوف مقيم من أن يسقط الغلام فيصاب بسوء ، أو يصاب ببرد ، أو يسرف فى اللعب ، أو يأكل أكثر مما تقوى معـــدته على أن تهضم ، أو أقل مما تتطلب قواه

واذ بلغ الثانية عشرة ، ظهرت مشكلة عويصة ٠٠ مشكلة اشتراكه الأول فى فريضة « العشاء الربانى » ٠ ففى ذات صباح ، سعت « ليزون » آلى « جان » وصارحتها بأنه لم يعد من الجائز أن يمضى الغلام فى حيـاته دون أن يتعلم الدين ، ويؤدى واجباته الاولية ٠٠ وراحت تجادل ، وتجادل ، متذرعة بمائة حجة ، كانت اقواها الاشارة الى ما سوف يقوله الناس عن هـــذا الوضع ٠ فترددت « جان » قائلة ان فى الوقت متسعا للتفكير فى الأمر ٠٠

ولكن ، حدث بينما كانت الاسرة فى زيارة آلفيكونتـــة « دى بريزفيل » ـ بعد شهر ـ ان تساءلت السيدة عفوا عما اذا لم تكن تلك السنة هى السنة التى يجب أن يشترك فيها « بول » فى فريضة العشـاء الربانى لأول مرة ، ففـوجئت « جان » بالسؤال ، وأجابت : « اجل يا سيدتى » ٠٠ وكان فى هذا الجواب فصل الخطاب ، فسألت جان آلخالة « ليزون » ـ دون أن تخـبر أباها بقرارها ـ ان تصطحب الغـلام الى « مدرسة الأحد » ٠٠

وسارت الامور على ما يرام فى الشـــهر الأول ٠ بيد ان « الكتـكوت » لم يلبث ان عاد ذات مساء وفى صـوته بحة ، آنقلبت فى اليوم التـالى الى سعال ٠ وسألته امه الملهـوفة ، **فعلمت ان القس أوقفه أثناء الدرس لدى باب الكنيسة ـ فى مهب الهواء ـ لسوء سلوكه !٠٠ وعلى أثر ذلك استبقته أمه فى البيت تعلمه دروس الدين بنفســها ٠ واذ ذاك ، ورغم**

توسلات « ليزون » ، أبى الأب « تولبياك » ان يدرجه فى عداد المعمدين الذين يحضرون العشاء الربانى ، قائلا ان الغلام لم يستكمل استعداده الدينى !٠٠ ثم كرر الرفض فى العام التالى ، فاشتد غضب البارون ، وأعلن ان لا داعى للايمان بالفكرة التى تعتبر هذه المظاهر والطقوس الخاصة بالقربان ضرورية لكى يغدو المرء مستقيما ، صالحا ٠ ومن ثم قررت الاسرة تنشئة الغلام كمسيحى ، دون داع لانتمائه للمذهب الكاثوليكى ، حتى اذا بلغ سن الرشد ، كان له أن يختار المذهب الذى يروقه ٠٠

وزارت « جان » ـ بعد ذلك بقليل ـ آل « دى بريزفيل » ، ولكن الزوجين لم يردا الزيارة ٠ واذ كانت تعرف مدى اهتمام جيرانها بمراعاة آداب السلوك ، فقد أدهشها هذا التغاضى ، بيد ان المركيزة « كوتلييه » سرعان ما كشفت لها ـ فى ترفع وأنفة ـ سبب امتناعهم عن زيارتها ٠ اذ كانت المركيزة تعتبر نفسها ـ بحكم مركز زوجها ولقبه الرسمى ، وثروتهما الطائلة ـ ملكة على علية القوم فى مقاطعة (نورماندى) ، وكانت تتصرف كملكة حقيقية ، فتبدى من الترفع أو التلطف ما يتفق والمناسبة ، وتوبخ ، أو تنبه ، أو تهنىء ، كما يتراءى لها !٠٠ فلما زارتها «جان» ، لم تلبث المركيزة ان قالت لها بجفاء ، بعد عبارات موجزة ، باردة : « ان المجتمع ينقسم الى طبقتين : أولئك الذين يؤمنون بالله ، وغير المؤمنين ٠٠ ونحن نعتبر الأولين ـ حتى أصغر صغير فيهم ـ أصدقاء لنا ، أما الآخرون ، فلا شأن لنا بهم اطلاقا ! »

وصمدت « جان » للهجوم فبادرت متسائلة : « **ولكن ، أو ليس من الجائز للمرء ان يؤمن بالله دون ان يذهب الى الكنيسة ؟ »**

فأجابت المركيزة : « لا ياسيدتى ٠٠ فالكاثوليك الصالحون يسعون الى عبادة الله فى كنيسته ، بنفس الحرص على الذهاب

لزيارة الناس فى دورهم » فأجابت « جان » وقد أحست بأذى من قولها : « **ان الله موجود فى كل مكان يا سيدتى ٠٠ وانا اذ اؤمن برحمته فى قرارة فؤادى ، لا أشعر بوجوده حين يتوسط بعض قساوسة بينه وبينى ! »**

فنهضت المركيزة قائلة : « ان القسس يحملون لواء الكنيسة يا سيدتى ، وكل من لا يتبع اللواء يعتبر خصما له ، ومن ثم فهو خصم لنا ! »

فقالت « جان » وقد نهضت هى الاخرى : « **لك يا سيدتى أن تؤمنى باله يعنى بالتعصب والمظاهر ، اما أنا ، فانى اؤمن برب التقوى والصلاح ٠٠ »**

واكتفت بأن هزت رأسها محيية ، ثم انصرفت

★ ★ ★

◆ **وكان** الفلاحون ـ هم الآخرون ـ يلومونها فيما بينهم على تهاونها بشأن اثبات تعميد « بول » ٠٠ ومع انهم لم يكونوا يواظبون على حضور الصلاة فى الكنيسة ، أو يتناولون فريضة العشاء الربانى ، أو حتى يقربون المائدة المقدسة فى عيد الفصح وفقا للطقوس الكنسية ، الا ان الأمر كان يختلف لديهم فيما يتعلق بالأطفال ، فكانوا جميعا يتورعون عن الاقدام على تربية طفل دون تعميد ٠٠ والدين ـ رغم كل شىء ـ دين !

وفطنت « جان » الى هذا الاستهجان ، فأحست بالغيظ ازاء الرياء الذى يتمثل فى الخوف من اللوم ، والجبن الذى يكمن فى قلوب الناس ، ويستخفى عن الانظار تحت ستار مثل هذه المظاهر !

وتولى البارون بنفسه تعليم « بول » ، فشرع يلقنه اللغة اللاتينية ٠٠ فكانت أمه لا تفتأ تقول له : « يجب ـ فوق كل شىء ـ ان لا ترهقه » ٠٠ **واضطر أبوها الى ان يحرم عليها دخول الحجرة التى كان بول يتلقى فيها دروسه ، لأنها كانت**

لا تنفك تقطع عليهما الدراسة لتتساءل : « هل تحس قدماك بردا يا كتكوت ؟ » أو « هل تشعر بصداع يا كتكوت ؟ » .. وكانت تقطع على المدرس استرساله قائلة : « لا تضطره الى الاكثار من الكلام ، والا آذيت حلقه ! » .. فلما حرم عليها أبوها ذلك ، قنعت بأن « تحوم » حول غرفة الدرس ..

وكان بول اذا ما فرغ من درسه ، بادر بالخروج الى الحديقة مع خالته وأمه ، فلقد اشتد بثلاثتهم الميل الى الفلاحة ، وأخذوا يزرعون الشجيرات الصغيرة فى الربيع ، ويبذرون الحبوب ويراقبون نموها فى ابتهاج ، ويقلمون الأغصان ، ويقتطفون الزهور ليصنعوا منها باقات ..

وكان من أكثر دواعى السرور لدى « بول » أن يزرع مختلف أصناف خضر السلطة ، فكانت له أربعة حياض يستنبت فيها جميع النباتات التى تؤكل أوراقها ـ كالخس ـ فيحفر ، ويروى ، ويغرس ، ويجتث الحشائش ، بمساعدة « امهاته » الثلاث اللاتى كن يعملن كالخادمات المكلفات بتنظيف الأرض .. كن يقضين الساعات راكعات فى أحواض السلطة ، ملطخات أثوابهن بالأقذار التى تعلق بأيديهن ، لكى يغرسن جذور النباتات الصغيرة فى الثغرات التى يحفرنها فى الأرض بأصابعهن ..

★ ★ ★

◆ **وأشرف** « بول » على الخامسة عشرة من عمره ، وكان طوله فى ازدياد ، حتى لقد سجل على مقياس حجرة الجلوس خمسة وخمسين سنتيمترا فوق المتر ، لكنه ظل بعقله طفلا ، جاهلا ، أحمق ، دللته المرأتان وجده العجوز .. فكان متخلفا عن سنه فى كثير من الأمور

وأخيرا ، تعرض البارون فى حديثه ذات مساء لموضوع « المدرسة الثانوية » .. فانخرطت جان فى البكاء لفورها ، وانزوت الخالة ليزون فى ركن معتم من الحجرة .. ثم تساءلت

الام : « ما حاجته الى مثل هذا القدر من التعليم ؟٠٠ لسوف ننشئه نشأة علية القوم من الريفيين ، ليصبح من سادة المزارعين ، فيعنى بأملاكه كالكثرة من النبلاء الآخرين ، ويعيش سعيدا ، ويكبر فى هذا البيت الذى عاش فيه أبواه من قبله ، وقد يموت هنا أيضا ٠٠ فماذا يبغى أكثر من هذا ؟ »

بيد ان الجد المسن هز رأسه قائلا : « **ماذا تراك قائلة اذا جاءك يوما وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، فقال : « اماه ، اننى لست شيئا مذكورا ٠٠ فأنا لا أعرف شيئا ، نتيجة خطئك ، وأمومتك الأنانية ٠٠ اننى أرانى عاجزا عن العمل ، وعن أن أكون ذا مكانة ، مع اننى لم اخلق للحياة المغمورة ، المتواضعة ، الحزينة ، التى قضى على بها حبك القصير النظر ؟ »**

ولم تحرجان جوابا ، بل جففت دمعها ، والتفتت الى الفتى قائلة : « حدثنى يا « بوليه » ٠٠ اتراك ستلومنى يوما لاننى أسرفت فى حبك ؟ »

فأجاب الفتى الطويل مشدوها : « لا ، يا اماه »

ـ أفتقسم على هذا ؟

ـ أجل ، يا أماه ٠٠

ـ ألست تؤثر البقاء هنا ؟

ـ بلى ، يا أماه ٠٠

ولكن الجد قال فى حزم : « **ليس لك الحق يا جان في ان تتصرفى فى حياته ٠٠ ان هذا الذى تفعلينه ينطوى على خسة واجرام ٠٠ انك تضحين بابنك فى سبيل سعادتك ! »**

فدفنت وجهها فى راحتيها ، وانخرطت فى البكاء قائلة : « لقد كنت جد تعسة ٠٠ جد تعسة !٠٠ وها أنتذا تريد أن تفصل عنى ابنى فى الوقت الذى بدأت أجد فيه بعض

السعادة » ٠٠ ثم استطردت خلال عبراتها : « ماذا يكون من أمرى الآن ٠٠ أأغدو وحيدة تماما ؟ »

فنهض أبوها وسار اليها فاحتضنها وهمس لها : « أو تنسين وجودى يا جان ! » ٠٠ فألقت ذراعيها حول عنقه وقبلته فى حنان ، ثم جاهدت لتتمالك صوتها وأجابت : « أجل ٠٠ لعلك على صواب يا أبى ٠ لقد كنت غبية حقا ، ولكننى لاقيت الكثير من العذاب ٠٠ والآن تجدنى راغبة فى أن يذهب بول الى المدرسة الثانوية »

وشرع « الكتكوت » هو الآخر فى البكاء ، دون ان يدرى تماما ما الذى يراد بمستقبله ، فأقبلت « الأمهات الثلاث » على تقبيله ، وتدليله ، وتشجيعه ، حتى اذا أووا الى مضاجعهم ، كانت قلوبهم مثقلة بالهم ، فأغرقوا جميعا وسائدهم بالدموع فى ذلك المساء ـ حتى البارون الذى كان قد تمالك نفسه فى البداية ! ـ وقرروا أن يرسلوا الفتى الى مدرسة ثانوية فى (الهافر) فى بداية الموسم الدراسي الشتوى ٠٠ ومن ثم لقى الفتى طيلة الصيف من التدليل فوق ما كان يلقى من قبل !

وكانت أمه كثيرا ما توجس كلما فكرت فى الفراق المقبل ٠٠ وابتاعت له من الثياب ما يكفيه لغيبة عشر سنوات !٠٠ وعندما حان موعد الرحيل ، فى صباح أحد أيام اكتوبر ، رافقته المرأتان والرجل المكتهل فى عربة الاسرة التى يجرها جوادان ٠٠

وكانوا قد اختاروا له ـ خلال رحلة سابقة ـ مكانا فى « عنبر » النوم بالمدرسة ، ومقعدا فى قاعة الدرس ٠٠ وقضت جان والخالة ليزون نهارا كاملا فى ترتيب متاعه فى ادراج صوانه ٠٠ فلما لم يتسع الصوان لأكثر من ربع ثيابه ، ذهبت أمه الى مدير المدرسة وسألته ان يسمح له بصوان آخر ٠٠

وقال موظف استدعاه المدير ، ان مثل تلك الكمية من

الامتعة والملابس الداخلية ، ليست سوى عبء ، وانها لن تستعمل قط ، ورفض أن يقدم صوانا آخر ، عملا بلوائح المدرسة .. واستاءت « جان » ، فقررت ان تستأجر حجرة فى نزل قريب لتختزن فيها الثياب ، وكلفت صاحب النزل ان يحمل بنفسه الى الفتى كل ما قد يطلب !.. واذ تم ذلك ، خرجوا يتنزهون على رصيف الميناء ، ويشاهدون السفن وهى تنطلق الى البحر ..

وهبط الشفق على المدينة ، فى اكتئاب ، فبدأت الأنوار تومض فى الظلام تباعا ، وتناولوا العشاء فى مطعم ، **لكن أحدا منهم لم يحفل بالأكل ، بل كانوا يتبادلون النظرات وأعينهم مغرورقة ، وخادم المطعم يحمل اليهم طلباتهم ، ثم لا يلبث ان يرفعها دون أن تمس !** .. واتجهوا أخيرا الى المدرسة ، فاذا بأطفال من مختلف الاعمار يتوافدون من كافة الارجاء ، فى صحبة أقاربهم أو خدمهم .. وكان أكثرهم يبكون ، والشهقات تسمع متصاعدة من جنبات الساحة الواسعة الخافتة الاضواء ..

واحتضن كل من « جان » و « الكتكوت » صاحبه فترة طويلة ، والخالة ليزون تقف خلفهما وقد دفنت وجهها فى منديلها .. كانت نسيا منسيا ، كعهدها دائما . بيد ان البارون لم يلبث ان تعجل الفراق ، وقد أوشك ان يستسلم لعواطفه ! وكانت العربة فى انتظارهم لدى الباب ، فصعدت اليها الخالة ليزون ، وجان ، والبارون ، وسرعان ما انطلقت بهم عائدة الى القصر فى جوف الليل .. والشهقات المكتومة تتصاعد من آن لآخر فى اطواء الظلام

* * *

◆ **وقضت** « جان » يومها الأول غارقة فى دموعها .. فلما كان اليوم الثانى بعد العودة ، أمرت باعداد العربة كى تنطلق الى (الهافر) .. فاذا بها حين تصل الى المدرسة تجد

ان « بوليه » قد وطن نفسه على الفراق وارتضاه ، اذ وجد لنفســه رفاقا للمرة الاولى ، وكانت رغبته فى اللعب معهم أقوى من ان تدع له وقتــا يجلس فيه على مقعده فى قاعة الجلوس بالمدرسة

وأخذت « جان » تتردد على المدرسة لزيارته مرة فى كل يومين ، وتصحبه الى خارجها فى أيام الأحد ٠ **وكانت فى أثناء ساعات الدراسة تمكث فى قاعة الجـلوس ، لا تجد من نفسها القــوة ولا الجرأة على مبارحة المدرسة ، حتى اضطر الناظر فى النهاية الى ان يسألها الاقلال من زياراتها ٠٠ لكنها لم تحفل برجائه ، فأنذرها بأنه سيضطر الى ان يرد اليها ابنها اذا مضت تقحم نفسها على أوقات فراغه ودراسته !٠٠ كما كتب الى البارون خطابا بهذا المعنى ، فاضطر والدها الى ان يفرض عليها فى قصر « أشجار الحور » رقابة شديدة ، لم تعد معها تملك الذهاب الى المدرسة ٠٠ ومن ثم أصبحت تتطلع الى كل عطلة مدرسية فى شوق يفوق شوق ابنها !**

وتملك نفسها قلق مستديم ، فشرعت تقوم بجـولات طويلة فى الريف ، لايرافقها سوى الكلب « سلوتر » ، وكانت تقضى النهار بأكمله أحيانا فى الخارج ، أو تقضى مابعد الظهر جالسة على التل المشرف على البحـر ترقب الموج ، أو تسير على قدميها الى (ايبور) ، سالكة الدروب التى اعتادت أن تسلكها خلال الغابة وهى فتاة ٠٠ ألا ما أبعد ماتلوح لها تلك الاحداث !٠٠ ما أبعد ذلك الزمن الذى كانت فيه فتاة عذراء ، تخطر فى دروب الريف مسترسلة فى الاحلام ،مشيدة القصور فى الهواء !

وكانت كلما رأت ابنها خالت ان الفراق قد ضرب بينهما عشر سنوات ٠ ٠وكان الغلام يقترب فى مظهره من الرجولة شهرا بعد شهر ٠٠ ومن شهر لشهر كانت « جان » تزداد



شبها بالمكتهلات ، حتى لقد أصبح أبوها يبدو الى جوارها كما لو كان أخا ! .. وكانت الخالة ليزون تبدو كأخت كبرى، فان السن كانت قد كفت عن التقدم بها ، بعد ان خبت وذبلت فى الخامسة والعشرين ، وانتهى أمر الزمن معها !

★ ★ ★

◆ **ولم** يكن « بول » تلميذا مجتهدا .. ولقد استطاع أن يجتاز العامين الأولين من دراسته ، لكنه كان فى العامين الثالث والرابع أقل توفيقا ، حتى بلغ العشرين ولما يزل فى مرحلة دراسة أصول اللغة والبلاغة !

وكان فى نموه قد غدا فارعا ، أشقر ، وخطت شفتيه معالم شاربين واهنين .. واعتاد أن يفد على قصر « الحور » فى يوم الأحد من كل اسبوع وكان قد تدرب على ركوب الخيل منذ صغره ،فلم يكن يتكبد أكثر من استئجار جواد يقطع به المسافة فى ساعتين .. وكانت « جان » تغادر القصر مبكرة

لتقابله خلال الطريق ، مصطحبة « ليزون » والبارون ، الذى كان ظهره يزداد انحناء وتقوسا ، حتى لقد أضحى يمشى كالكهل الضعيف ، عاقدا يديه خلف ظهره ليحفظ توازنه •• فكانوا يمضون على مهل ، ويجلسون على جانب الطريق كلما أحسوا تعبا ، وأبصارهم عالقة بالأفق ترتقب الفارس الشاب •• فما أن يلوح كنقطة سوداء على خط الافق الابيض ، حتى يأخذ ثلاثتهم فى التلويح بمناديلهم •• فيلكز جواده ويندفع نحوهم كالاعصار ، مما كان يثير الرعشة والخوف فى كيان أمه وخالته ، وينتزع الاعجاب الحماسى من جده الكليل ••

ومع أن «بول» غدا أطول قامة من أمه ، فقد ظلت تعامله دواما كما لو كان صبيا يافعا ، ولا تفتأ تبدى له ما اعتادت أن تبدى من عبارات الرعاية والاشفاق ، كقولها : « أرجو أن لا يكون البرد قد تسرب الى قدميك يا (كتكوت) ! » ••وكانت تفتح نافذتها ــ اذا ماخرج بعد الفطور يتمشى على الربوةليدخن سيجارة ــ لتقول له منادية : « أرجو أن لاتخرج بدون قبعة ، والا أصابك برد » •• وكانت ترتجف قلقا اذا ما شرع فى العودة الى المدينة بعد هبوط الليل ، فتقول له : « لاتندفع فى ركوبك يا «كتكوت» •• أتوسل اليك •• فكر فى أمك المسكينة التى لن تعيش لو أصابك شىء ! »

★ ★ ★

◆ **وفى** صباح أحد أيام السبت ، تسلمت «جان» رسالة من «بوليه» يقول فيها أنه لن يستطيع أن يزورهم فى اليوم التالى ، لأن بعض أصدقائه نظموا نزهة سألوه أن يرافقهم فيها •• ومن ثم انقضى يوم الاحد وهى فى عذاب وقلق ، كأن ثمة شرا يوشك أن يحيق بها • فلما كان يوم الخميس ، انطلقت الى (الهافر) لأنها لم تعد تحتمل القلق !

وبدا لها «بول» متغيرا ، وان لم تدر كيف كان تغيره •• فقد كان أكثر نشاطا وابتهاجا ، وقد ازداد صوته عمقا •

وباغتها قائلا فى بساطة ، كما لو كان يتحدث عن أمر طبيعى : « مادمت قد جئت اليوم يا أماه ، فلن أقضى يوم الاحد فى قصر « الحور » ، لأننى سأقوم بنزهة أخرى خارج المدينة »

وفجعتها كلماته ، وداخلها من الجزع ماكان يصيبها لو انه أنبأها بأنه راحل الى بلد بعيد ٠ ثم تمالكت نفسها الى الحد الذى مكنها من أن تتكلم ، فهتفت : « أواه ، يا « كتكوت » ! ٠٠ ماذا دهاك ؟٠٠ نبئنى ، ماذا فى الأمر ؟ »

فلم يزد على أن ضحك ، ثم قبلها قائلا : « لا شىء يا أماه ! ٠٠ لقد أردت أن أستمتع برفقة الاصدقاء ٠ هذا كل مافى الامر ! »

وأعجزها أن تجد الكلمات التى تجيب بها ٠٠ وفيما كانت عائدة فى العربة ، وحيدة ، أخذت الأفكار الهاجسة تراودها:

لا ، لم يكن هذا « كتكوتها » الصغير ٠٠ « كتكوت » الايام السالفة !٠٠ وتبينت للمرة الاولى أنه غدا رجلا ، وانه أخذ « يبتعد » عنها ، ويرغب فى أن تكون له حياته الخاصة ، لا يعكرها عليه أهله المكتهلون ٠٠ ولاح كأنما قد انقلب فى يوم واحد ٠٠ أفكان هذا ابنها ، الصبى الصغير الذى اعتاد أن يحملها على أن تحفر له فى الارض ، ليغرس الخضر ؟ ٠٠ أفكان هذا الشاب الملتحى ، الذى أصبح يبدى ارادته فى قوة ، هو عين ذاك الصبى ؟

ولم يظهر « بول » فى قصر الحور ـ خلال الأشهر الثلاثة التالية ـ الا مرة فى كل حين ، وكان فى كل مرة يبدى رغبة صريحة فى الرحيل بأسرع ما يستطيع !٠٠ فكان اذا حل المساء ، يلتمس العذر للمبادرة بالرحيل قبل الموعد بساعة ٠٠ وجزعت « جان » ، لكن البارون حاول أن يسرى عنها بقوله : « دعيه وشأنه ياعزيزتى ٠٠ دعيه يعيش لنفسه ! »

* * *

◆ **الى** أن كان ذات صباح ، اذ أقبل رجل رث الثياب ، يسأل فى لكنة ألمانية واضحة ، عن « السيدة الفيكونتة » . وبعد كثير من الانحناءات وابداء الاحترام ، أخرج من جيبه حافظة متسخة ، فتش بين محتوياتها وهو يقول : « لدى وريقة لك » .. واسلمها قصاصة قذرة قرأتها ، ثم أعادت قراءتها ، وتطلعت الى الرجل ، وعادت تقرأها مرة أخرى ، ثم سألته: « ما معنى هذا ؟ »

فقال الرجل وهو ينحنى متذللا : « سأوضح لك الامر .. لقد احتاج ابنك الى قسط من المال ، ولما كنت اعرف انك أم طيبة ، فقد أقرضته مبلغا بسيطا يكفى حاجته »

وتساءلت «جان» وهى ترتجف : « ولكن ، لم لجأ اليك .. لماذا لم يأت الى ؟ »

فشرع الرجل يشرح لها باسهاب قصة دين تورط فيه الشاب وهو يلعب الميسر ، وكان لا بد له من أن يسويه قبل ظهر اليوم التالى . ولما كان قاصرا ، فانه لم يجد من يقرضه .. واذ كان الأمر « يمس شرفه » ، فقد دفعت النخوة المتكلم الى أن يقدم للشاب مبلغا بسيطا ..

وهمت « جان » بأن تدعو البارون ، ولـــكنها لم تقو على مبارحة مقعدها لقسوة الصدمة التى أصابت أعصابها .. وأخيرا ،سألت الرجل أن يتفضل بدق الجرس ..وتردد الرجل، خشية أن يكون ثمة شرك للايقاع به ، وقال متلعثما : « اذا كنت قد أزعجتك ، ففى وسعى أن أعود فى يوم آخر » .. بيد أنها هزت رأسها ، فدق الجرس ، وانتظر معها مقدم البارون ، دون أن ينبسا ببنت شفة .. حتى اذا أقبل هذا ، ألم بالموقف من النظرة الاولى .. وكان السند بألف وخمسمائة فرنك ، فوضع البارون ألف فرنك على المنضدة ، وحدج الرجل بنظرة حادة ، قائلا له : « اياك أن تأتى الى هنا مرة أخرى ! » ،

فشكره الرجل ، وانحنى ، ثم انصرف ..

وبادرت الأم والجد بالرحيل الى (الهافر) ، بيد انهما لم يكادا يبلغان المدرسة ، حتى قيل لهما أن « بول » لم يلجها منذ شهر ، وان مديرها تلقى أربع رسائل تحمل توقيع«جان»، وتنبىء بأن ابنها كان مريضا ، وانه لن يلبث أن يتماثل للشفاء . وكانت كل رسالة مرفقة بشهادة طبية .. مزورة بالطبع ! .. وبهتا لهذه الانباء ،حتى لقد وقفا يتبادلان النظرات فى ذهول ، وقد ألهتهما الحيرة عن الاستئذان فى الانصراف .. وأثار الموقف كله قلق مدير المدرسة ، فصحبهما الى قسم البوليس . ثم قصدت « جان » وأبوها بعد ذلك الى أحد الفنادق لقضاء الليلة ! **فلما كان اليوم التالى ، عثر على «بول» لدى امرأة سيئة السيرة ! فاصطحبه جده وأمه الى قصر الحور، دون أن يفاتحاه فى شىء . وكانت « جان » تبكى ومنديلها لا يفارق عينيها .. و «بول» يسرح بصره فى الريف غير مكتوث !**

وبعد أسبوع ، تبين أن الشاب اقترض خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة من دراسته ، مبالغ ارتفعت الى خمسة عشر ألفا من الفرنكات !.. وقد لزم الدائنون الصمت فى البداية ، اذ كانوا يعلمون انه لن يلبث أن يبلغ سن الرشد بعد أشهر قلائل !.. ولم تسأله أمه وجده ايضاحا ، اذ خيل اليهما فى البداية ان فى وسعهما أن يقوماه بالحسنى .. فآثراه بأطايب المأكولات ، ودللاه ، ومازحاه ..

وكان الربيع قد أقبل ، فاستأجرا له مركبا فى (ايبور) ــ رغم مخاوف « جان » ــ كى يخرج فى نزهات بحرية كلما طاب له ذلك . ولكنهما حرما عليه ركوب الخيل ، خشية أن يعود الى (الهافر) . وقضى الصيف فى خمول ، وانفعال كان يؤدى به فى بعض الاحيان الى درجة القسوة والعنف ! وكان البارون مهموما بشأن تعليمه المهمل .. ومع أن «جان»

لم تكن راضية عن فراقه مرة أخرى ، لكنها لم تملك سوى أن توافق على أن لا بد من تدبير يصون مستقبل الفتى !

ولم يعد « بول » ذات مساء الى القصر ·· وبلغهما انه خرج الى البحر مع اثنين من الصيادين ، فهرعت أمه عارية الرأس كالمجنونة الى (ايبور) تبحث عنه ·· وكان ثمة عدد من الرجال لدى المرفأ فى ارتقاب عودة المركب ·· وما لبث أن تبدي على البعد ضوء ضئيل ، أخذ يقترب ·· فلما وصلت المركب ظهر أن « بول » كان قد غادرها بعد أن أوصله الصيادان الى (الهافر) !

وأخفق رجال البوليس في العثور على أثر له فى هذه المرة ·· اذ كانت المرأة التى اختبأ عندها فى المرة السالفة ، قد اختفت هى الأخرى ، بعد أن سددت ايجار مسكنها ، وباعت متاعها · ووجدوا فى غرفة « بول » بقصر الحور رسالتين كتبتهما تلك المرأة التى كانت تبدو مدلهة فى هواه ، وقد حدثته فيهما عن رحلة الى انجلترا ، وعن انها دبرت النفقات اللازمة · وعاش الثلاثة الذين كانوا يعمرون القصر فى جحيم من الانفعالات ، وقد خيم عليهم الصمت والاكتئاب · ونشطت بوادر المشيب التى كانت قد دبت فى شعر « جان » ، حتى كاد يغدو ابيض صافيا ·· وكانت كثيرا ماتعجب للقدر وماعاملها به من قسوة !

★ ★ ★

◆ **وذات** يوم ، تلقت رسالة من الأب « تولبياك » يقول فيها : « لقد نزل بك عقاب الله ياسيدتى ·· رفضت أن تهبيه ابنك ، فهاهوذا قد انتزعه منك وألقى به فى أحضان عاهر بغى !·· أو لن تتفتح عيناك على هذا الانذار السماوى ؟ ·· ليس لرحمة الله حد ، فلعله غافر لك اذا انت جئت وركعت

عند قدميه .. ولسوف أفتح لك - أنا عبده الذليل - بابه فى أى وقت تطرقينه » !

واستبقت الخطاب فترة طويلة على ركبتيها ، وقد داربخلدها ان من المحتمل أن يكون القس على حق ، فانتابت ضميرها الهواجس الدينية .. أترى الله غيورا ، محبا للثأر كالانسان ؟ .. لو لم يكن غيورا ، لما خافه أحد ، ولما تعبد له مخلوق .. فهو ولا شك قد أباح لنفسه هذه المشاعر والاحاسيس البشرية ليتجلى لمخلوقاته أوضح مايكون .. ومن ثم تسلل الى نفسها الشك الخائف ، المنطوى على الجبن ، الذى يجتذب المعذبين عادة الى الكنيسة ..

وعندما هبط الظلام ذات مساء ، تسللت الى دار القس النحيل ، حيث ركعت عند قدميه تسأله أن يطلب لها الغفران، فوعدها « بنصف » مغفرة ، لأن «الرب» - كما قال - ماكان ليمنح كل رحمته لدار تضم رجلا كالبارون .. وأضاف قائلا: « ولسوف ترين سريعا آثار رحمة الله القدسية » !

وبالفعل ، تلقت بعد يومين رسالة من ابنها ، فرأت فيها - وهى فى غمرة همومها واضطرابها - أول مظهر لرحمة الله .. وقد جاء فى الرسالة :

« لا تقلقى يا أماه ، فأنا في لندن ، وبخير ، ولكنى فى أشد الحاجة الى نقود ، فلسنا نملك دانقا ، حتى اننا لنقضى بعض الايام دون ما قوت . ولقد انفقت المرأة التى تعيش معي - والتى أحبها بكل جوارحي - جميع ماكانت تملك ، لتبقى معى .. وكان هذا الذى أنفقته خمسة آلاف من الفرنكات .. ولعلك تدركين موقفى اذا قلت لك ان الشرف يدعونى الى أن أدفع لها ما أنفقت ، قبل أى شيء آخر .. ولسوف أدين لك بفضل كبير اذا اقرضتنى خمسة عشر ألفا من الفرنكات ، من ميراث ابى ، ريثما أبلغ الرشد فى القريب . انك بهذا تسدين لى عونا كبيرا ..

« وداعا يا أمى العزيزة ، وانى لأبعث اليك والى جدى والخالة ليزون بأخلص حبى ، وأرجو أن أراكم عما قريب »

ابنك : فيكونت بول دى لامار

هل كتب لها حقا ؟! ٠٠ اذن فهو لم ينسها رغم كل شيء ! ٠٠ ولم تشغل بالها بأمر ما كان يطلب من نقود ، فقد كانت على استعداد لأن ترسل له أى مبلغ ، مادام هو فى حاجة اليه ٠٠ ثم ، ماقيمة المال وقد كتب « بول » اليها ! ٠٠ وأسرعت الى البارون تريه الخطاب ودموعها هامية ٠٠ ودعيا الخالة ليزون ، وراح ثلاثتهم يقرأون العبارات التى كتبها «بول» ، كلمة فكلمة ، ويناقشون معانيها ٠٠ وانحازت «جان» الى صف ابنها ، وقد انتقلت من قنوط تام ، الى أمل ثمل : « مادام قد كتب ، فهو لابد عائد الينا ! »

وأجاب البارون فى هدوء : « لا تنسى انه تركنا من أجل تلك المرأة ٠٠ فلا بد انه يقيم لها من الوزن فوق مايقيم لنا ، سيما وانه لم يتردد فى هجرنا من أجلها ! »

وفجأة ، شق قلب « جان » ألم مباغت ، فظيع ، فاذا بكراهيتها لتلك المخلوقة التى سلبتها حب ابنها ، تستيقظ٠٠ واذآ بغيرة أموية ، هوجاء ، جامحة ، تستولى عليها ٠٠ وكانت كل أفكارها حتى تلك اللحظة تدور حول « بول » ، فلم تكد تفكر فى أن تلك المخلوقة مسئولة عما كان من عقوقه ٠٠ **لكن ملاحظة البارون أذكت فجأة وقدة «التنافس» ، وكشفت عما لتلك المرأة من نفوذ خطر على « بول » ، فاذا جان تحس بأن معركة من أجل الغلبة والسيادة على الشاب قد بدأت بينها وبين تلك المرأة !٠٠ بل شعرت بأنها لو خيرت ، لآثرت أن تفقد ابنها على أن تشاركها فيه عشيقته ٠٠ ومالبث كل الفرح الذى كان قد اعتراها ان زايلها !**

وأرسلوا للشاب خمسة عشر ألف فرنك ٠٠ فلم يسمعوا عنه بعد ذلك أى نبأ خلال خمسة أشهر ٠٠ جاء بعدها أحد

المحامين ليسوى التركة التى خلفها « جوليان » ، فقدمت«جان» وأبوها حساباتهما اليه دون ماتذمر ، بل انهما نزلا عما لهما من حق فى تقاضى النسبة المئوية من الدخل ، المخولة للأم مابقيت على قيد الحياة ..

* * *

◆ **وعاد** « بول » الى باريس ليجد فى انتظاره ثروة تبلغ مائة وعشرين ألف فرنك !.. وانقضت بعد ذلك ستة أشهر لم يكتب خلالها سوى أربعة خطابات ، ذكر فيها باقتضاب أنباء صحته ، وختم كلا منها بعبارات فاترة أعرب فيها عن عواطف مصطنعة .. فقال فى أحد الخطابات : « انني الآن صاحب عمل ، فقد حصلت على منصب فى « البورصة » .. وآمل أن أستطيع زيارة قصر « الحور » يوما يا أمى العزيزة !»

ولم يكتب قط كلمة عن عشيقته ، لكن صمته كان يوحى بمعان تفوق ما لو كان قد كتب عنها صفحات كاملة .. فقد كانت « جان » تحس خلف كلمات ابنها الباردة ، بتأثير تلك المرأة !.. تأثير تلك الغريمة اليقظة ، التى لا سبيل الى زحزتها .. غريمة الأمهات طرا !.. وكان «النساك» الثلاثة يتباحثون فيما ينبغى انتهاجه لانقــاذ « بول » ، لكنهم لم يصلوا الى قرار .. أيرحل أحدهم الى باريس ؟.. ولكن،ماجدوى هذا ؟ .. وكان البارون ينتهى الى القول : « لن يلبث الزمن أن يبلى حبه ، فيعود الينا من تلقاء نفسه ! » .. ولكن هذا القول لم يكن ليسرى عنهم ، بل أصبحت حياتهم تستحق الرثاء ..

وكانت « جان » و « ليزون » تتسللان معا الى الكنيسة ، دون علم البارون !.. وانقضت فترة طويلة قبل أن يتلقوا أية أنباء .. وأخيرا ، أزعجهم ـ ذات صباح ـ خطاب مفعم باليأس ، جاء فيه :

« أمى العزيزة ..

« اننى مشرف على الهلاك ، فلم يعد أمامى سوى أن أطلق الرصاص على رأسى ، مالم تخفى لنجدتى ! .. فلقد خانتنى مضاربة كنت أرجو أن أصيب منها أرباحا طائلة ، فأصبحت مدينا بخمسة وأربعين ألفا من الفرنكات ! ولسوف يؤدى عجزى عن الدفع الى خرابى ، وتلطيخ شرفى ، والقضاء على مستقبلى .. اننى هالك .. أكرر اننى أوثر أن ألهب رأسى بالرصاص على أن أعيش فى هذا العار .. بل لقد كان من المحتمل أن أقدم قبل الآن على هذه النهاية ، لولا تشجيع امرأة لم أذكرها لك قط فى خطاباتى ، وان كانت بمثابة نورى الهادى .. »

« أبعث اليك يا أمى العزيزة بحبى .. ولعلها المرة الاخيرة. فوداعا»

« بول »

وكانت مع الرسالة حزمة من أوراق تضمنت بيانات تجارية تفصل تلك الكارثة .. فبادر البارون مجيبا ـ برجوع البريد ـ بأن كل شىء لن يلبث أن يسوى ، ثم رحل الى (الهافر) ليتحرى مدى النكبة . ورهن ضياعه من أجل المبلغ الذى أرسل الى « بول » ! .. فكتب الشاب ثلاث رسائل مفعمة بالشكر ، وبآيات الحب الجياش ، وأعلن قرب وصوله الى قصر « الحور » .. لكنه لم يصل قط !

★ ★ ★

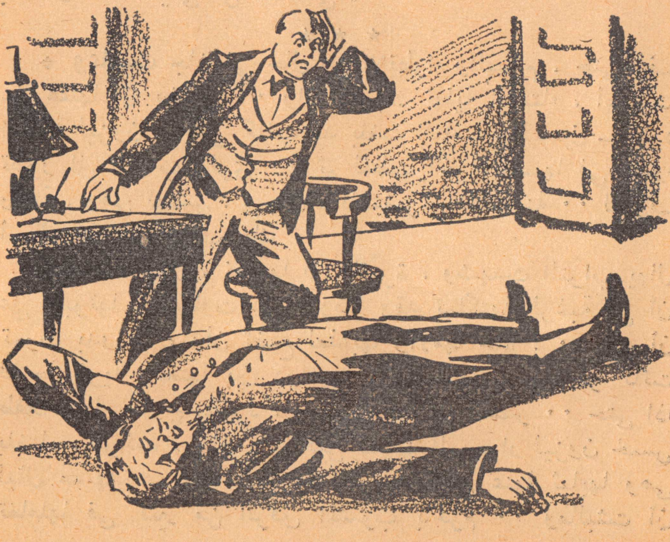
◆ **وانقضى** عام كامل .. وفى الوقت الذى قررت فيه «جان» والبارون ان يقصدا الى باريس ، ليبذلا محاولة أخيرة لاعادته ، علما من رسالة مقتضبة انه عاد الى لندن ليؤلف شركة ملاحية تحت اسم « بول دى لامار وشركاؤه »

وقال فيما كتب : « ثمة ثروة ترتقبنى من وراء هذا ، فاننى غير معرض لأى خطر ، ومن ثم تستطيعين أن تتصورى

مزايا المشروع ٠٠ ولسوف أكون قد جعلت لنفسى ــ حين أراك مرة أخرى ــ مكانا مرموقا فى الحياة ، فليس كالأعمال دافع يرفع من شأن الرجل فى أيامنا هذه »

٠٠ على انه لم تنقض ثلاثة أشهر ، حتى أعلن افلاس شركة البواخر ، ورفع أمر المدير الى القضاء ، « لعدم انتظام دفاتر الشركة » !٠٠

وأصيبت « جان » بنوبة من الانفعالات العصبية استمرت عدة ساعات ، ولزمت بعدها الفراش ٠ ورحل البارون مرة أخرى الى (الهافر) ، ليستشير رجال القانون ، والمحامين ، ورجال الادارة ٠٠ فتبين ان عجز شركة « دى لامار » بلغ مائتين وخمسة وثلاثين ألفا من الفرنكات !٠٠ وعاد يرهن أملاكه مرة أخرى ، كما رهن القصر والمزرعتين ٠٠ **وفيما**



كان يتخذ الاجراءات النهائية بمكتب محاميه ، ذات مساء ، أصيب بنوبة قلبية ٠٠ فاستدعيت « جان » على عجل لتراه ، لكنه مات قبل أن تصل !٠٠ فعادت بجثته الى قصر « الحور » ، وقد اشتد بها الحزن حتى فاق نطاق القنوط ولوعة اليأس ٠٠ ورفض الاب « تولبياك » أن يتيح له جنازة كنسية ، رغم ضراعات المرأتين والحاحهما ، ومن ثم دفن البارون تحت جنح الظلام ، بلا مراسم دينية !

وسمع « بول » النبأ من أحد الذين كانوا يعملون فى تصفية شركته ، وكان ما يزال مختبئا فى انجلترا ، فكتب يعتذر عن اضطراره للبقاء بعيدا ، ذاكرا أن النعى نمى الى سمعه متأخرا ، بحيث لم تكن ثمة فسحة من الوقت ليعود ٠٠ واستطرد يقول: « والواقع اننى سأعود فى القريب وأراك يا أماه العزيزة ، بعد ان انتشلتينى من ضائقتى »

★ ★ ★

◆ **وعاشت** جان فى حال من الانطواء والهموم ، حتى خيف على عقلها ان يختبل ٠٠ واذ اقتربت نهاية الشتاء ، أصيبت الخالة ليزون ــ التى كانت قد بلغت الثامنة والستين ــ ببرد تطور الى التهاب رئوى ٠٠ ثم لفظت آخر انفاسها فى هدوء ودعة ، وهى تهمس : « جان » ياصغيرتى المسكينة ٠٠ لسوف أسأل الله أن يرأف بك »

وتبعت « جان » نعشها الى المقبرة ، وشهدت التراب يهال على تابوتها ، فتهاوت على الارض وقد تملكتها الرغبة فى أن تموت بدورها ، وأن تضع لعذابها وآلامها حدا ! ٠٠ بيد أن فلاحة قوية رفعتها بين ذراعيها ، وحملتها ــ كما لو كانت طفلا ــ الى خارج المقبرة ، وسارت بها الى القصر ٠٠ حتى اذا بلغتاه ، تركت « جان » ــ التى قضت الى جوار ليزون خمس ليال مسهدة ــ تلك القروية الغريبة تخلع عنها ثيابها وهى تعاملها فى كثير من الرفق المشوب بالحزم ٠٠ ومالبثت أن

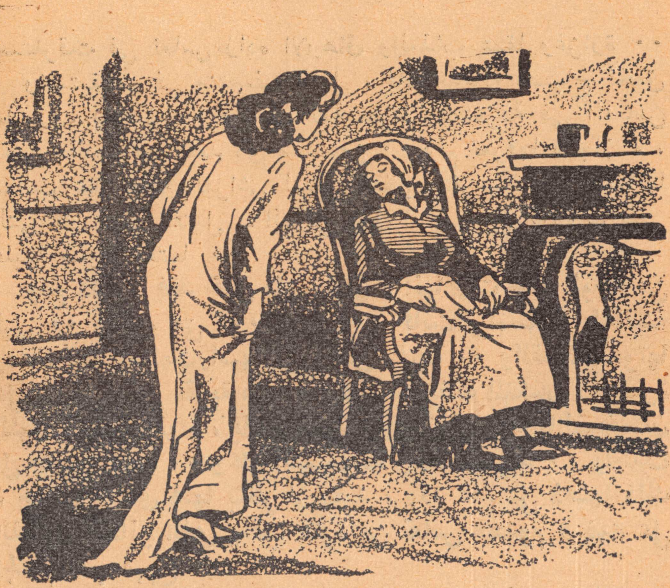
استغرقت فى نعاس زاده الارهاق والعذاب عمقا وغزارة ..

واستيقظت فى منتصف الليل ، فاذا بذبالة مصباح تخفق على رف المدفأة .. وكانت ثمة امرأة مستغرقة فى النعاس وهى جالسة فى مقعد ذى مسندين .. ولم تعرفها « جان » ، فمالت على حافة الفراش لتنعم النظر متفرسة فى قسماتها التى كان لهب الفتيل – الطافى فوق الزيت فى كوب – يلقى عليها ضوءا معتما ..

ومع ذلك ، فقد خيل الى « جان » انها رأت هذا الوجه من قبل .. ولكن، متى ؟.. وأين ؟.. كانت المرأة تنام فى طمأنينة ودعة، وقد أسلمت رأسها الى احدى كتفيها .. وألقت قلنسوتها على الارض ، على مقربة منها . وكانت عريضة المنكبين ، حاضرة اللون ، ربعة القوام ، بادية القوة ، وقد تدلت يداها الضخمتان الى جانبى المقعد .. وكان الشيب قد وخط شعرها .. وأخذت « جان » تحدق فيها بنظر لا يحيد ، وقد غام على ذهنها ذلك الذهول الحائر الذى يعقب فترة من نعاس محموم فرضه على الجسم تعب مبرح ..

أجل ، لقد رأت هذا الوجه من قبل !.. أفكان ذلك فى الايام الخوالى ؟.. أم منذ عهد قريب ؟.. ولم تستطع أن تقطع بجواب ، فأثار الغموض انفعالها ، وضايقها .. ومالبثت أن زحفت من السرير وتسللت فى هدوء لتتأمل النائمة عن كثب .. واقتربت منها على أطراف أصابع قدميها ، فاذا بها تتبين انها نفس المرأة التى حملتها من المقبرة وأسلمتها الى فراشها .. وتذكرت هذه الواقعة فى صورة مبهمة ، مختلطة .. ولكن ، أتراها التقت بالمرأة من قبل ، فى مرحلة أخرى من مراحل حياتها ؟ .. أو أنها انما خالت انها تعرفها من قبيل الوهم ؟.. ثم ، كيف تراها ولجت غرفتها بعد خروجها منها ؟ .. ولماذا ؟

وفتحت المرأة عينيها ، فرأت « جان » ، واذ ذاك بادرت



قائمة فى عجلة ٠٠ ووقفت كل منهما تواجه الاخرى . وقد تقارب جسماهما حتى تلامس صدراهما ٠٠ وغمغمت المرأة الغريبة : « ماذا ! ٠٠ هل قمت ؟ ٠٠ لسوف تصابين ببرد ٠٠ عودى الى سريرك فورا ! »

فسألتها جان : « من أنت ؟ »

ولكن المرأة بسطت ذراعيها وأطبقتهما حولها فحملتها من الارض ونقلتها الى السرير حيث أرقدتها فى رفق على الاغطية، ثم انحنت عليها ، وأخذت تبكى وهى تقبل وجنتيها ، وعينيها، وشعرها ٠٠ بينما كانت دموعها تبلل الوسادة ٠٠ وهتفت: « يامولاتى المسكينة ٠٠ يا آنسة جان ٠٠ ألا تذكرينني ؟ »

وصرخت جان : « روزالى ! » ، ثم طوقت عنق المرأة

بذراعيها ، وأخذت تضمها اليها وتقبلها ٠٠ وانخرطت كلتاهما فى البكاء برهة ، حتى كاد يتفطر قلباهما ، وقد تعلقت كل بعنق الاخرى ، لاتقوى على الانفصال ٠٠ وكانت « روزالى » أول من تمالكت نفسها ، فقالت : « هيا الزمى الفراش حتى لاتصابى ببرد » ٠٠ وأخذت تسوى الفراش ، وتحكم الأغطية حول جسد السيدة التى كانت مولاتها فيما مضى ، وتعدل الوسادة تحت رأسها ٠٠ غير ان « جان » استمرت فى النحيب، اذ استيقظت فى نفسها الذكريات القديمة ٠٠ وأخيرا تساءلت: « كيف جئت يا روزالى ؟ »

فأجابت المرأة : « أو كنت تظنين اننى أتركك وحيدة ؟ »

قالت جان : « الا أوقدى شمعة حتى أستطيع أن أراك ! »

وبعد أن أشعلت « روزالى » شمعة على مقربة من الفراش ، أخذت كل من المرأتين تحملق في الاخرى ، دون أن تنبس ببنت شفة ٠ ومالبثت « جان » أن تناولت يد خادمتها وقالت: « ماكان بوسعى أن أعرفك ياروزالى ، فقد تغيرت كثيرا ٠٠ وان كنت أقل منى تغيرا ! »

فحدقت « روزالى » فى المرأة الذابلة ، ذات الشعر الأشيب، التى كانت حين فارقتها شابة جميلة ٠٠ وأجابت : « أجل ، لقد تغيرت ياسيدة جان ٠٠ تغيرت اكثر مما ينبغى ٠ ولكن، تذكرى ان كلا منا لم تر الاخرى منذ أربع وعشرين سنة ! »

وأمسكتا برهة، مخلدتين للتفكير ، ثم قالت جان أخيرا ، متلعثمة : « لعلك كنت سعيدة ، على الاقل ؟ » ٠٠ فبادرت « روزالى » قائلة فى اضطراب ، وقد خشيت أن توقظ فى فؤاد مولاتها بعض الالم : « **كيف ؟ ٠٠ أجل ٠٠ أجل ياسيدتى ٠٠ ليس لى أن أشكو ٠٠ لا ، لا ! ٠٠ كنت أسعد منك ، وما كنت آسفة الا على شىء واحد ، هو اننى اضطررت الى مبارحة هذا المكان !** » ٠٠ وأمسكت فجأة ، وقد أفزعها ماقالته عفوا ٠٠ ولكن « جان » أجابت فى رفق : « أجل ، ياروزالى ٠٠

ماكل مايشتهيه المرء يدركه ٠٠ أعتقد انك انت الاخرى اصبحت أرملة ؟» ٠٠ ثم أردفت بصوت مرتعش : « هل لك أولاد آخرون ٠٠ غير ٠٠ ؟ »

ـ لا ، يا سيدتى ٠٠

ـ وابنك ٠٠ ماذا جرى له ؟٠٠ هل أنت راضية عنه ؟

ـ أجل ياسيدتى ، انه ولد طيب ، ومجتهد ٠٠ لقد تزوج منذ ستة أشهر ، وسيتولى أمر مزرعتى بعد اذ جئت لأمكث معك

فهمست « جان » وهى ترتعش لفوران عواطفها : « اذن فسوف تمكثين معى ياروزالى ؟ »

وبادرت روزالى مجيبة : « طبعا ياسيدتى ٠٠ لقد دبرت كل أمورى على هذا الاساس »

★ ★ ★

◆ **ولاذتا** بالصمت برهة ٠٠ وظلت « جان » ـ على الرغم من نفسها ـ توازن بين حياتيهما ، فى غير ما سخيمة أو حسد، اذ كانت قد راضت نفسها على تحمل قسوة القدر ٠٠ومالبثت أن قطعت حبل الصمت متسائلة : « هل كان زوجك كريما معك ؟ »

ـ أجل ٠٠ كان رجلا صالحا ياسيدتى ٠٠ دؤوبا على العمل ، قديرا على ادخار المال ٠٠ وقد مات بداء الصدر

فجلست « جان » فى السرير ، بادية الرغبة فى أن تستمع الى كل شىء ٠٠ ثم قالت : « حدثينى ياروزالى عن كل حياتك ٠ لسوف يخفف هذا عنى اليوم »

فقربت المرأة مقعدها الى السرير ، وشرعت تتحدث عن نفسها ، وعن دارها ، وعن كل مايحيط بها ٠٠ مفصلة فى تحمس تلك التفصيلات الحبيبة الى أهل الريف ، واصفة مزرعتها ، ضاحكة لبعض الذكريات ، وهى ترفع صوتها كلما

أوغلت فى الحديث ، كما تفعل المرأة التى اعتادت أن تأمر وتنهى ٠٠ ثم قالت أخيرا : « أواه ، اننى أملك ثروة صغيرة لا بأس بها ، فلا حاجة بى الى أن أخشى المستقبل » ٠٠ ثم **اعتراها الحياء مرة أخرى ، فخفضت من صوتها وهى تستدرك: « ومع ذلك ، فأنا مدينة لك ياسيدتى بكل هذا ٠٠ ولست ارتقب منك أجرا ٠٠ لا ، بالتأكيد !٠٠ لا بالتأكيد !٠٠ واذا لم تقبلى هذا ، فسأرحل ثانية ! »**

فأجابت جان : « ما أراك تتصورين أننى أقبل أن تعملى من أجلى بغير مقابل ؟ »

ـ بلى ٠٠ بالتأكيد ياسيدتى ٠٠ نقود ٠٠ أأقبل أن تعطينى نقودا ؟٠٠ كيف ، وأنا أكاد أملك قدر ماتملكين ؟٠٠ أوتعرفين ماتبقى لك بعد كل قروضك ورهونك والفوائد التى لم تدفع قط ، ومن ثم راحت تتضاعف من فترة الى فترة ؟٠٠ هل تعرفين ؟ ٠٠ لا ، لست تعرفين ٠٠ أؤكد انك لم تعودى تملكين دخلا قدره عشرة آلاف فرنك ٠٠ بل انه لا يبلغ هذا القدر ٠٠ أفتدركين هذا ؟ ٠٠ على اننى سأتولى تدبيرشئونك الآن وبأسرع ما أستطيع ٠٠

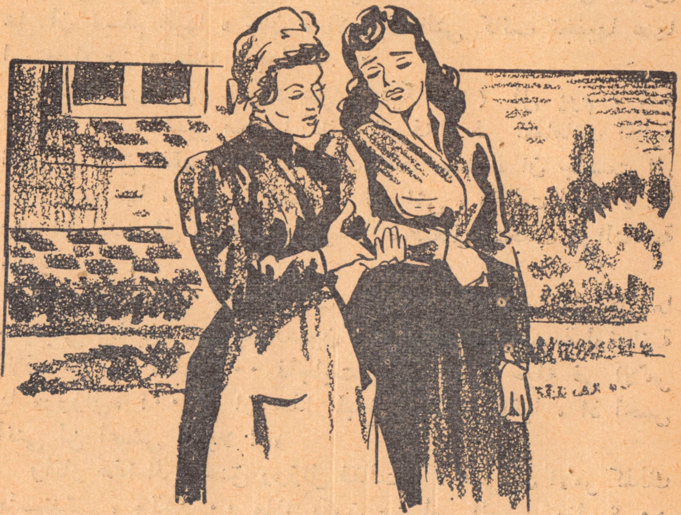
وكان صوتها قد ارتفع فى اباء ، مستنكرة ان هذه الامور قد أهملت حتى أصبح الخراب يتهدد جان ٠٠ وشاعت فى وجه سيدتها ـ وهى تتكلم ـ ابتسامة واهنة بعثتها المشاعر التى اختلجت فى نفسها ٠٠ فصاحت « روزالى » :

ـ ما ينبغى أن تضحكى لكل هذا يا سيدتى ، اذ ليست للمرء قيمة بغير المال !

فتناولت جان يدى روزالى بين راحتيها فترة طويلة ، ثم أطلقت لسانها بالفكرة التى طالما تملكت ذهنها : « أواه !٠ اننى لم أصب فى حياتى حظا ٠٠ كان كل شىء يمضى فى غير صالحى ٠٠ كان القدر شديد القسوة على ! »

فهزت «روزالى» رأسها قائلة : « **ما هكذا ينبغى أن تتكلمى ياسيدتى ·· لا ، لا يجب ·· كل مافى الامر انك تزوجت زيجة غير سعيدة ·· فالحق ان الزواج بالطريقة التى تم بها زواجك ، ودون ما معرفة وثيقة بالخطيب ، لايمكن أن يجدى ··**»

واستأنفتا الحديث بعد ذلك ، كصديقتين حميمتين ·· حتى أشرقت الشمس ، وهما لا تزالان تتكلمان ··



الفصل الثانى عشر

• **تولت** «روزالى» فى خلال الأيام الثمانية التالية ، ادارة شئون البيت • وراضت « جان » نفسها على تقبل كل شىء ، وعلى اطاعتها وترقب نتيجة تصرفاتها • واذ استوت على ساقيها، ضعيفة ، كليلة ، أخذت تقوم بنزهات قصيرة ، مستندة الى ذراع « روزالى » ، كما كانت أمها تفعل •• وكانت الخادم تؤنبها ، وتسرى عنها — فى كلمات قاطعة ولكنها رقيقة — وتعاملها كما لو كانت طفلا عليلا ••

وكانتا لا تنفكان تتحدثان عن الايام الغابرة ، والعبرات تخنق صوت « جان » ، و «روزالى» تتكلم بتلك اللهجة الجوفاء التى اعتادتها الفلاحات •• وأشارت الخادم مرارا الى فوائد

القروض التى حان موعد تسديدها ٠٠ ومالبثت أن أصرت على أن تسلم اليها « جان » الاوراق التى كانت تخفيها عنها استحياء من مسلك « بول » ٠٠

وظلت «روزالى» تتردد على (فيكامب) كل يوم ، لمدة أسبوع ، تستشير محاميا كانت تعرفه ، فى المعاملات المالية التى لم تكن تفقهها ٠٠ ومالبثت ذات مساء ، ان جلست الى جوار سيدتها ، بعد أن اسلمتها للفراش ، وقالت لها : « اما وقد اطمأننت الى فراشك ياسيدتى ، فتعالى نتحدث فى الناحية المادية ٠٠ »

ومضت تشرح لجان الموقف بأسره ، وأفهمتها ان كل ما سيتبقى لها بعد تسوية الديون ، لن يزيد على سبعة أو ثمانية آلاف من الفرنكات !٠٠ فأجابت جان : « لا حيلة فى الأمر يا «روزالى» !٠٠ ثم ان هذا المبلغ سيكون كافيا ، اذ أحس أننى لن أعيش طويلا ! »

وأثار هذا الرد حنق روزالى فقالت : « هبى أن الامر كذلك ياسيدتى ، ولكن ٠٠ ماذا يكون من أمر السيد بول ؟ ٠٠ أليس فى نيتك ان تخلفى له شيئا ؟ » ٠٠ فارتجفت جان ، وقالت : « أرجو أن لاتذكريه لى ٠٠ ان مجرد التفكير فيه يعذبنى كثيرا »

– على العكس ٠٠ بل يجب أن أحدثك عنه ٠٠ انك لا تتصرفين تصرفا معقولا ياسيدة جان ٠٠ قد يكون الشاب فاسدا الآن ، ولكن لن يظل هكذا دائما ٠٠ لسوف يتزوج يوما وينجب أطفالا ، فلا بد من أن يكون لديه مال يعولهم به ٠٠ أليس كذلك ؟٠٠ اذن ، فاصغى لى ٠٠ يجب أن تبيعى ضيعة أشجار الحور !

فاستوت « جان » جالسة فى السرير بانفعال ، وقالت : « أبيع ضيعة الحور ! ٠٠ أواه !٠٠ أبدا لن أبيعها ٠٠ قط ! »

ولكن روزالى لم تكن بالتى تتزحزح عن رأيها ، فقالت :

« انما أنصحك بأن تبيعى الضيعة ياسيدتى ، لأنه لا بد لك من ذلك ! »

* * *

• **ومضت** تشرح لها خططها ، وتقديراتها ، وحججها • فهما اذا باعتا قصر « الحور » والمزرعتين الملحقتين به الى المشترى الذى وفقت اليه ، فسيتسنى لهما الاحتفاظ بالضيعة التى بقيت لجان فى « سان ليومار » ، وهي كفيلة ـ بعد سداد كل الرهون ـ بأن تدر دخلا قدره ثمانية آلاف وثلاثمائة من الفرنكات ، تخصصان منها ألفا وثلاثمائة للاصلاحات والنفقات اللازمة للمزارع ، فتبقى سبعة آلاف من الفرنكات ، تؤخذ منها خمسة آلاف لنفقات المعيشة ، ويدخر الباقى للطوارىء ••

واستأنفت روزالى حديثها قائلة : « أما كل الاملاك الاخرى، فقد ضاعت •• لم يبق شىء منها •• ولسوف أحتفظ بمفتاح الخزانة •• أما السيد « بول » فلن ينال فرنكا آخر •• ولو واحدا •• فانه لن يرعوى عن ابتزاز آخر فرنك لديك ! »

وتمتمت جان التى كانت تبكى فى صمت : « أجل ، ولكن •• هبى انه لايجد المال الذى يسد به رمقه ؟ »

ـ حسنا •• اذا كان جائعا •• فليعد الى هنا ، فلسوف يجد لدينا دائما سريرا ، وغذاء •• أو تظنين انه كان يقدم على تلك الحماقات لو لم تمنحيه مالا من البداية ؟

ـ ولكنه كان مدينا ، وشرفه مهددا مدى الحياة !

ـ أفترين اذا ضاعت كل نقودك ، سيرده ذلك عن حماقاته؟ •• لقد دفعت له من قبل ، لا بأس فى ذلك •• غير انك لن تدفعى ثانية •• أؤكد لك •• والآن ، سعدت مساء ياسيدتى

وغادرت الحجرة •• ولم يغمض لجان جفن بعد انصرافها ، فقد أوشكت فكرة بيع الضيعة ، ومفارقة الدار التى قضت فيها حياتها ، ان تدفعها الى الجنون ••

وفى الصباح التالى ، قالت لروزالى اذ دخلت المخدع :

« لن أقوى على مغادرة هذا المكان ياروزالى ! »

فاشتد بالخادمة الغضب ، وقالت : « بل انك مضطرة ياسيدتى .. ولن يلبث المحامى أن يعود بعد برهة مع الرجل الذى يرغب فى شراء القصر .. فاذا لم تبيعيه ، فلن تحصلى على فرنك واحد لمدة أربع سنوات ! »

وبهتت « جان » لفرط الأسى ، فأخذت تردد : « لا أستطيع أبدا .. لن أقوى قط ! »

وان هى الا ساعة ، حتى حمل اليها ساعى البريد خطابا من « بول » طلب فيه قرضا قدره عشرة آلاف من الفرنكات .. وبادرت « جان » تستشير « روزالى » وهى فى جزع ، ولكن هذه بسطت راحتيها وهتفت قائلة : « ماذا قلت لك ياسيدتى؟ .. هاك مصداق قولى .. لقد كنتما مسوقين الى الخراب لو لم أخف الى نجدتك »

وانصاعت « جان » لرغبة خادمتها ، فكتبت لابنها الرسالة التالية :

« يابنى العزيز : لم يعد فى وسعى أن أفعل شيئا من أجلك، فقد أفلستنى، حتى أصبحت مضطرة لأن أبيع ضيعة «أشجار الحور » .. ولكن ، لا تنس قط انك ستجد بيتا تعيش فيه مع أمك العجوز التى جلبت عليها كل هذا الألم »

« جان »

وعندما أقبل المحامى مع مسيو « جوفران » – وكان صاحب مصنع لتكرير السكر ، ثم اعتزل العمل – استقبلت « جان » السيدين بنفسها ، وجاست بهما خلال القصر ..

* * *

◆ **ولم** ينقض شهر حتى كانت قد وقعت عقد البيع ، واهتدت فى الوقت ذاته الى بيت صغير بالقرب من (جوديرفيل) على الطريق المؤدى الى (مونفيلييه) ، فى ضاحية (باتفيل) الريفية ..

وفى الطريق الذى كانت أمها تتنزه فيه ، سارت حتى هبط المساء ، وقد استولى الهم على قلبها وعقلها ، فأخذت تخاطب الأشجار ، والافق ، والمقعد القائم تحت شجرة الدلب ، وكل شىء كانت تألفه ‥ أخذت تودع فى أسى ـ الخميلة ، والتل الصغير المواجه للبستان الذى كثيرا ماجلست فيه ، والذى شاهدت منه الكونت « دى فورفييى » فى ذلك اليوم المشئوم الذى مات فيه « جوليان » ‥ وشجرة عجوزا مهملةاعتادتأن تعتمد اليها ‥ والحديقة الحبيبة بأكملها ‥ واضطرت«روزالى» فى النهاية الى أن تخرج اليها لتعود بها ‥

وكان فى انتظارهما لدى باب القصر فلاح فى الخامسة والعشرين من عمره ، حيا « جان » فى مودة كأنه يعرفها منذ سنوات ، وقال : « يوم سعيد ياسيدة جان » أأنت بخير ؟ ‥ لقد كلفتنى أمى ان اعنى بمسألة نقل متاعك ، وأحب أن أعرف ما الذى تودين ان تأخذى منه ، لأننى سأنقله على دفعات صغيرة ، حتى لا يتعطل عملى فى المزرعة ‥ »

كان هذا الفتى ابن خادمتها ‥ ابن « جوليان » ، وأخا « بول » ! ‥ وخيل لجان ان قلبها كاد يكف عن الوجيب ‥ ولكنها الى جانب هذا أحست بميل الى أن تقبل الشاب ‥ وأخذت تتفرس فيه ، تحاول أن تكشف ثمة وجه للشبه بينه وبين زوجها ، أو ابنها ‥ كان متورد البشرة ، قويا ، أزرق العينين ، أصفر الشعر ‥ كأمه ٠ ومع ذلك فقد كان يبدو كجوليان ؟ ‥ أما كيف، فهذا ماعز عليها أن تدركه ‥ كان ثمة شىء فى وجهه ـ اجمالا ـ يذكرها بأبيه !‥ وبعد هنيهة تابع الشاب حديثه قائلا :

« أكون جد شاكر لو استطعت أن ترينى الاشياء الآن »

غير أن « جان » لم تكن قد استقرت على ماتأخذه معها ، اذ كان بيتها الجديد صغيرا ، ومن ثم سألته ان يعود فى نهاية الاسبوع ‥ ومالبثت فكرة الانتقال أن أتاحت لها

مايشغل بالها ، ويدخل بعض التغيير على حياتها المتواترة ، الرتيبة • فأخذت تنتقل من حجرة الى أخرى ، تبحث عما يرتبط فى ذهنها بالاحداث من قطع الاثاث •• القطع التى كانت تؤلف جزءا من حياتها ، بل من كيانها ، اذ عرفتها منذ الطفولة ، وعلقت بها ذكريات أفراحها وأحزانها •• قطع كانت كالتواريخ في سياق حياتها ، أو كالرفاق الجامدة الصماء للساعات البهيجة والساعات الحزينة •• قطع اكتهلت معها ، فأصابها البلى والتفكك !

وأخذت تختار القطع واحدة فواحدة •• وكثيرا ما كانت تتردد وتغير رأيها بين دقيقة وأخرى ، وتتأرجح فى الاختيار بين مقعدين ، أو بين مكتب صغير قديم ومنضدة لأعمال التطريز •• وكانت تفتح جميع الادراج محاولة أن تتذكر أحداث الماضى ، ثم لا تلبث فى النهاية أن تقول : « أجل ، سآخذ هذه » ، فيرفع الشيء وينقل الى الطابق السفلى ، ليوضع في قاعة المائدة •• ورغبت فى أن تحتفظ بغرفةنومها كاملة : السرير ، والساعة ، والستائر •• وكل قطعة فى الواقع !

واختارت عددا من مقاعد « الصالون » التى كانت مكسوة بقماش تحمل رسومه ، قصصا كانت تثير اعجابها وهى طفلة : مثل « الثعلب والبجعة » ، و « الثعلب والغراب » ، و « النملة والجرادة » ، و « أبو قردان الحزين » •• حتى اذا تفقدت كل ركن من المنزل ، واقترب موعد رحيلها ، صعدت يوما الى مخزن الاثاث فى أعلى القصر ، ووقفت عند مدخله مذهولة اذ صافحت نظرها اكداس من الاشياء بعضها مهشم،وبعضها لم يصبه سوى بعض القذارة لكنه أقصى فى المخزن لانه لم يعد جذابا ، ولأن قطعا جديدة حلت محله •• وتبينت «جان» وسط الركام أشياء اختفت عن بصرها منذ عهد بعيد فلم تفطن لغيابها •• أشياء تافهة ظلت تحيط بها خمس عشرة سنة ،

دون أن تنتبه الى وجودها ، ولكنها أخذت تذكرها الآن بجلاء حين رأتها الى جوار الاشياء الاخرى التى كانت تألفها ، فاذا بها تتخذ فجأة قيمة الشهود المنسيين ، والاصدقاء الذين طال افتقادهم !٠٠ واذا بها توحى الى « جان » بما يوحى به بعض الناس الذين قد يلتقى المرء بهم مرارا دون أن يكشف شيئا مما يدور فى أعماقهم من افكار وخواطر ، ثم اذا بهم ذات ليلة ، ودون ما انذار ، ينطلقون فى الكلام عن أنفسهم ، فيكشفون لنا ـ ونحن فى غمرة العجب الذاهل ـ أعمق الأسرار الخفية فى نفوسهم !

وأخذت تتنقل من شىء الى آخر ، ممسكة أنفاسها لفرط الانفعال ، وهى تهمس لنفسها : « ياللعجب !٠٠ لقد حطمت هذا الكوب ذات مساء ، قبيل زواجى بأيام قلائل ٠٠ أواه ! ٠٠ ها هو ذا مصباح أمى الصغير ، والعصا التى كسرها أبى يوم حاول أن يفتح البوابة الخشبية التى انتفشت بماء المطر فتعذر فتحها » !

وكانت هناك أيضا أشياء كثيرة لم تتعرف عليها ، لأنها كانت تمت الى أجدادها ٠٠ **أشياء كانت تبدو غير مناسبة للمكان ولا للزمان ، فهى تجهل تاريخها ، بل ان أحدا لم ير أولئك الذين اختاروها ، ولا الذين ابتاعوها ، ولا الذين امتلكوها ، ولا الذين احبوها ٠٠ ولا عرف أحد الأيدى التى تحسستها فى شغف ، ولا الأعين التى تأملتها فى اغتباط ٠٠**

وأحست «جان» بمتعة فى تحسس تلك المخلفات التى كساها الغبار ، وفى فحصها ، فطال بقاؤها فى المخزن العجيب ، تحت الضوء الخافت الذى كان يتسلل خلال زجاج السقف ٠٠ وعنيت بفحص بعض مقاعد ذات ثلاث سيقان ، عسى ان تتذكر شيئا عنها ٠٠ ومدفأة نحاسية للسرير ، ومدفأة للقدمين مقعرة خيل اليها انها تبدو مألوفة لعينيها ، وعددا من متاع المطبخ المهشم ٠٠

ومالبثت أن أعدت قائمة بما شاءت أن تأخذ من هـــذه الاشياء ، وهبطت لتوفد « روزالى » لجمعها ، لكن الخادم المغيظة أبت أن تنقل هذه الاشياء من « سقط المتاع » ٠٠ بيد ان «جان» ـ التى لم يكن قد بقى لها شىء من الارادة ـ ظلت فى هذه المرة على اصرارها ، فلم يكن بد من تنفيذ أمرها ٠٠

★ ★ ★

◆ **وذات** صباح ، أقبل المزارع الشاب « دنيس ليكوك » ـ ابن جوليان ـ يقود عربة ، لينقل الدفعة الأولى ٠ ورافقته « روزالى » لتشرف على نقل المتاع من العربة الى البيت الجديد، وترتيبه ٠٠ وما أن خلت « جان » الى نفسها ، حتى راحت تطوف بحجـــرات القصر ، فى نوبة من الألم اليـــائس ، تقبل فى حب خالص تلك الأشياء التى قدر لها أن تخلفها وراءها ٠٠ الطيور البيضاء الكبيرة التى زينت بها كسوة الاثاث بقاعة الجلوس ، والشمعدانات العتيقة ٠٠ وكل شىء كانت تصادفه وأخذت تهرع من غرفة الى أخرى ، وعيناها مغرورقتان بالدموع ، وعقلها يدور كالدوامة ٠٠ ثم خرجت لتلقى نظرة أخيرة على المحيط ٠٠

كان شهر سبتمبر قد أوشك على نهايته ، وقد خيمت على الأرض سحابة قاتمة ، مثقلة ٠٠ وكانت قمم الامواج المصفرة تمتد الى ماوراء مرمي البصر ٠٠ ووقفت «جان» طويلا على التل المشرف على البحر تقلب في ذهنها الافكار المعتمة ، حتى اذا هبط الظلام ، عادت الى القصر بعد أن عانت في ذلك اليوم من العذاب مالم تعانه فى أى من محنها السابقة ٠٠ وألفت « روزالى » قد عادت ، وجلست تنتظرها ٠٠ كانت مغتبطة بالمسكن الجديد ، فراحت تعلن انه أبهج بكثير من هذا الصرح الضخم الذى لم يكن يمتاز بشىء ٠٠ بل ولم يكن مشيدا على حافة الطريق ٠ لكن « جان » ظلت مع ذلك تبكى طيلة الليل ٠٠

ومنذ علم الفلاحون أن القصر قد بيع ، لم يعودوا يبدون لجان سوى الاحترام الذى يفرضه عليهم مركزها فحسب • كانوا فيما بينهم يطلقون عليها « المرأة المجنونة » ، دون أن يدروا حقيقة الباعث لذلك ، وان لم يكن ثمة شك في ان السبب كان يرجع الى أنهم حدسوا بغريزتهم الفطرية ماأصاب أحاسيسها من اعتلال دائم ، وماكان يكتنف أفكارها منمبالغة، وما كانت تعانيه نفسها المسكينة ، المعذبة ، مناضطرابات ••

وفى اليوم السابق لرحيلها ، ساقتها قدماها مصادفة الى الحظائر ، فترامت الى أذنيها همهمة خافتة ، لم تلبث أن تبينت انها صادرة من « سلوتر » •• الكلب الذى لم تذكره منذ شهور • وكان مكوما على فراش من القش ، وقد أصابه العمى والشلل ، وشيخوخة غير مألوفة فى الكلاب •• لا تعنى به سوى الطاهية « لوديفين » التى لم تنسه • واحتوته « جان » بين ذراعيها ، فقبلته ، ثم حملته الى الدار •• وكان ثقيلا، لا يكاد يقف على سيقانه المتيبسة ، وينبح كما لو كان كلبا من الدمى التى يلهو بها الاطفال ••

★ ★ ★

• وأخيرا ، بزغ فجر اليوم الاخير •• وكانت « جان » قد نامت ليلتها فى مخدع « جوليان » القديم ، لان غرفتها كانت قد أخليت من الاثاث •• **وغادرت الفراش منهوكة ، لاهثة الأنفاس ـ وكأنها قضت الليل تجرى ! ـ فاذا العربة تقف فى ساحة القصر ، وقد نقلت اليها الحقائب وماتبقى من متاع •• بينما أعدت عربة صغيرة ذات عجلتين فى مؤخرة القصرللسيدة والخادم ••**

وقدر أن يبقى « سيمون » العجوز و «لوديفين» فى القصر حتى يحل فيه المالك الجديد ، ثم يقيما مع بعض أقاربهما ،اذ كانت « جان » قد منحتهما معاشا بسيطا ، فضلا عن أنهما كانا قد أدخرا بعض المال •• وكانت السن قد تقدمت بهما

كثيرا ، فأصبحا ثرثارين ، لا نفع منهما ٠٠ أما « ماريوس » فكان قد تزوج وبارح القصر منذ أمد طويل ٠٠

وبدأت السماء تمطر حوالى الساعة الثامنة ٠٠ رذاذا خفيفا، مثلوجا ، تسوقه ريح واهنة من المحيط ، فاضطروا الى نشر بعض الاغطية الواقية فوق العربة ٠٠ وكانت أوراق الشجر قد أخذت تتساقط ٠٠

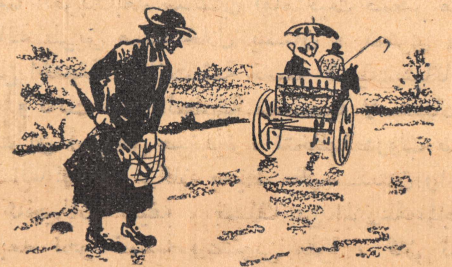
وكان ثمة قدحان من القهوة على مائدة المطبخ ، فجلست « جان » أمام قدحها ، وشرعت ترشف القهوة فى تؤدة ٠٠ ومالبثت بعد برهة أن نهضت قائلة : « هيا بنا ! » ٠ولبست قبعتها ووشاحها ، وبينما كانت « روزالى » تحكم المعطف الواقى حول جسم سيدتها،قالت هذه : «هل تذكرين ياروزالى ، كيف كانت تمطر حين غادرنا (روان) قادمين الى هنا ؟ »

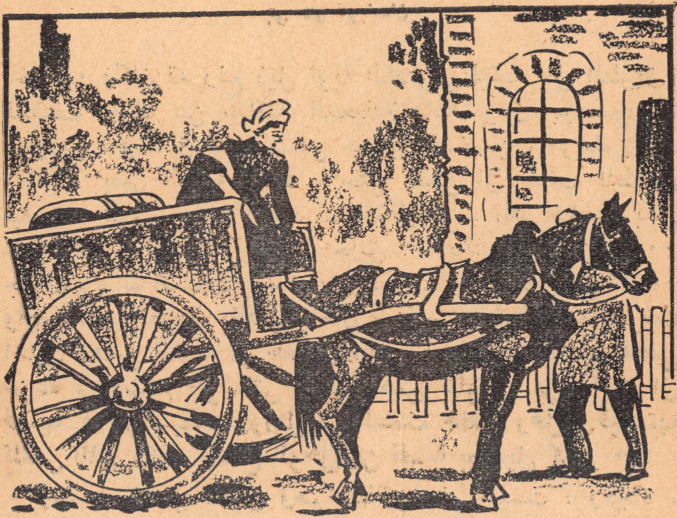
وفجأة ، تداعت قواها ، فانهارت فى شبه نوبة عصبية ٠٠ وقد تقلصت يداها فوق قلبها ٠٠ وظلت ساعة راقدة كالميتة ٠٠ ثم فتحت عينيها ، أخيرا ، وأخذت تنشج بالبكاء ٠٠واذ انهمرت دموعها ، عاودها الهدوء تدريجا٠ بيد أن النوبة خلفتها فى ضعف لم تكد معه تقوى على الوقوف ٠ وخشيت « روزالى » أن تفاجئها نوبة أخرى ، اذا هى لم ترحل عن القصر فورا ، فاستدعت ابنها ، وحملا « جان » متعاونين الى العربة ، فأجلساها على المقعد الجلدى ٠٠ وصعدت «روزالى» الى جوارها ، فنشرت على ركبتى « جان » بطانية ، وعلى كتفيها عباءة ثقيلة ٠٠ ثم فتحت مظلة فوق رأسيهما وقالت : « عجل يادنيس ٠٠ يجب أن نرحل فورا ٠ » فصعد الشاب الى جوار أمه ، وجلس واحدى ساقيه مدلاة خارج العربة ، اذ لم يكن ثمة فراغ كاف له بداخلها ٠ ثم أطلق العنان للجواد ، فاندفع مسرعا فى خطوات وثابة جعلت تهز المرأتين٠٠حتى اذا انحرفوا نحو القرية ، أبصروا بالأب « تولبياك » يذرع الطريق جيئة وذهابا ، وقد لاح عليه أنه كان فى انتظار أن يشيعهم بنظرة

أخيرة . وكان قد رفع ذيل ثوبه الكهنوتى ليقيه بلل الطريق، فكشف بذلك عن ساقيه النحيلتين المكسوتين بجوربين اسودين ، واللتين تنتهيان فى حذاءين ضخمين ، موحلين .. وما أن ابصر العربة مقبلة ، حتى تنحى الى جانب الطريق ليفسحه لها ، بينما أخذت « روزالى » - التى علمت بكل ما اقترفه - تتمتم فى سخط حانق : « يالك من خنزير !.. حلوف » ، ثم أمسكت بيد ابنها وصاحت :«ألسعه بسوطك!» .

وفيما كانوا يمرون بالقس ، مال « دنيس » فجأة ، فانحرفت احدى عجلتى العربة الى حفرة عميقة .. وكانوا منطلقين بأقصى سرعة ، فاندفع الرشاش يغطى القس بالوحل من رأسه الى قدميه .. واغتبطت روزالى ، فالتفتت خلفها وهزت قبضتها للقس الذى وقف يمسح الوحل عن نفسه بمنديل كبير ..

ومضت خمس دقائق وهم منطلقون فى صمت ، وفجأة ، قالت « جان » : « لقد نسينا سلوتر ! » ، فأوقف دنيس العربة، وأسلم أمه العنان ، وقفز من مكانه .. ومالبث أن عاد بالكلب الهزيل ، المشوه ، الأجرب ، بين ذراعيه ، فوضعه فى العربة بين المرأتين .





الفصل الثالث عشر

• **وقفت** العربة بعد ساعتين أمام بيت صغير من الطوب، قام على حافة طريق ممتد خلال بستان « كمثرى » ٠٠ وفى كل ركن من الحديقة ، كانت ثمة خميلة كسيت بنباتات متسلقة، مزهرة ٠٠ وكانت هذه الحديقة مخصصة لاستنبات الخضر ، وقد قسمت الى أحواض صغيرة ، تتخللها دروب ضيقة حفت بها أشجار الفاكهة ٠٠ وكان يحيط بالبستان والحديقة سياج من شجيرات كثيفة ، يفصله عن المزرعة المجاورة حقل ٠٠ وعلى بعد نحو خمسة وعشرين متراً ، كان ثمة حانوت للحدادة ٠٠ وكانت أقرب الدور تقوم على مسافة تبعد نحو كيلومتر ونصف ٠٠ وخلفها ينبسط سهل « كو » ، تتناثر

فى رحابه المزارع ، التى كادت تختفى فى أحضان أربعة صفوف مزدوجة من الاشجار الضخمة المحيطة بالبساتين ..

وودت « جان » أن تنام فور وصولهم لتستجم ، ولكن «روزالى» خشيت عليها من أن تغرق فى أفكارها ، فلم تدعها تنام .. وكان النجار قد حضر من (جوديرفيل) ليساعد على تنسيق الأشياء ، فشرعوا فورا فى ترتيب ماكان قد وصل من أثاث ، ريثما تصل الدفعة الاخيرة .. ومالبثت العربة أن وصلت بعد ساعة ، فأفرغت حمولتها تحت المطر . وما أن هبط المساء ، حتى كان البيت فى فوضى ، وقد تراكمت الاشياء فى كل غرفة كيفما اتفق .. وكانت «جان» منهوكة القوى ، فاستغرقت فى النوم بمجرد أن لامس رأسها الوسادة !

وكان العمل فى الايام التالية من الكثرة بحيث لم تجد « جان » وقتا للتفكير .. بل انها ، فى الواقع ، وجدت بعض المتعة فى تنسيق بيتها الجديد ، اذ كانت طيلة الوقت الذى قضته فى العمل ، **لا تنفك تتصور ان «بول» سيأتى يومااليقيم فيه . .وعلقت ستائر غرفة نومها القديمة فى قاعة الطعام ، التى رؤى أن تؤدى أيضا مهمة غرفة الجلوس . وتحملت «جان» مزيدا من العناء فى تأثيث احدى غرف الطابق العلوى ، بعناية خاصة .. تلك كانت غرفة أطلقت عليها اسم «غرفةالكتكوت»!**
.. أما الغرفة الاخرى فى الطابق ، فقد استأثرت بها لنفسها، فى حين رؤى أن تنام «روزالى» فى الحجرة القائمة تحت برج المنزل ، فى الطابق العلوى .. وازدان البيت فى انسجام ينم عن ذوق رفيع ، فبدا جميلا .. وسعدت «جان» به فى البداية ، لكنها مالبثت أن عادت تعانى شعورا ضايقها .. شعورا بأن ثمة شيئا تفتقده . .لكنها لم تدرك كنهه !

وأقبل ذات صباح أحد كتبة المحامى - من فيكامب -يحمل ثلاثة آلاف وستمائة فرنك دفعها أحد تجار الاثاث ثمنالرياش قصر « الحور » ، فسرت « جان » بالنقود ، وما أن بارح الكاتب

الدار ، حتى ارتدت قبعتها وهرعت الى « جوديرفيل » لترسل هذا المبلغ الذى هبط عليها من السماء ، الى « بول » ، بأسرع ماوسعها !٠٠ ولكنها صادفت فى طريقها « روزالى » عائدة من السوق ، فحدست الخادم أن شيئا قد حدث ، وان لم تدركه ٠٠ غير أنها سرعان ماعرفته ، لأن « جان » لم تكتم دونها سرا ! واذ ذاك ، وضعت « روزالى » السلة على الارض ،وأسندت يديها الى خاصرتها ، وراحت تؤنب « جان » بأعلى صوتها ٠٠ ثم أمسكت ذراع « جان » بيمناها ، بينما حملت السلة بيسراها ، وعادت الى البيت ساخطة ٠ وما أن أصبحتا داخل الدار ، حتى طلبت من « جان » أن تسلمها النقود ، فأعطتها اياها جميعا اللهم الا ستمائة فرنك تكتمت أمرها ٠ بيد ان « روزالى » ظلت على ارتيابها ، فسرعان ماكشفت هذه الخدعة، وحملت « جان » على أن تسلمها هذا المبلغ بدوره ٠ ومالبثت أن تساهلت ، فسمحت بأن يرسل هذا المبلغ الصغير الى « بول » ، الذى كتب لأمه بعد بضعة أيام يشكرها ، ويقول فى رسالته : « لقد أسديت الى صنيعا عظيما يا أماه ، لان حالنا انحدرت الى فقر مدقع تقريبا ! »

★ ★ ★

◆ **ولم** ترتح « جان » الى المعيشة فى (باتفيل) ، فاضطرب تنفسها ، وازداد عن ذى قبل شعورها بأنها منسية ، منبوذة ٠٠ وكثيرا ماكانت تتمشى الى (فرنوى) ، ثم تعود عن طريق (تروا مار) ، ولكنها لا تكاد تبلغ الدار ، حتى تهم بالخروج ثانية ، وكأنها غفلت عن الوجهة التى كانت تسعى اليها ٠ وتكرر هذا العمل مرارا ، دون أن تفقه ماكان يداعب خيالها ، الى أن تمتمت ذات مساء ــ عفوا ، وعن غير قصد ــ بعبارة ، سرعان ما أرشدتها الى سر حيرتها ٠٠ اذ قالت وهى تجلس الى مائدة العشاء : « لشد ما أتوق الى رؤية المحيط ثانية ! » ٠ **البحر ! ٠٠ كان هذا هو الشىء الذى افتقدته !٠٠ فلقد ظل**

يجاورها خمسا وعشرين سنة ، ذلك البحر الرائع ، الهدار ، بملوحته التى تخالط الهواء ، وبأنوائه ٠٠ البحر الذى كانت تراه من نافذتها فى ضيعة أشجار « الحور » ٠٠ وتستنشق عبيره ليل نهار ، والذى اعتادت ان تحبه كما لو كان انسانا !

كذلك كان « سلوتر » قلقا ، فما ان وصل الى الدار الجديدة لأول مرة ، حتى زحف تحت صوان بالمطبخ ، فلم يستطع أحد أن يغريه على الخروج ٠٠ ثم اعتاد أن يرقد هناك طيلة النهار ، لا يتحرك الا لينقلب على جانبه وهو يئن بصوت مكتوم ٠٠ وما أن يهبط المساء ، حتى يجر نفسه نحو الباب ، وهو يرتطم بالجدران ٠ وبعد أن يقضى دقائق خارج الدار ، يعود ثانية فيمكث أمام الموقد الدافىء ، حتى اذا أوت « جان » و «روزالى» الى مخدعيهما ، شرع فى العواء ٠٠ ويظل يعوى طيلة الليل بصوت يفتت الاكباد ٠ وقد يصمت أحيانا برهة ، لكنه كان دائما يعود الى العواء ، بصوت اشد كآبة من ذى قبل ! وأخيرا، ربط الى برميل خارج الدار ، لكنه ظل فى عوائه ٠٠ واذ كان قد شاخ وأوشك على الموت ، فقد حمل ثانية الى داخل المطبخ ٠

وعز على « جان » النوم ، اذ كانت طيلة الليل تسمع عويل الكلب العجوز ، وهو يحاول أن يألف البيت الجديد ٠ ولم يستطع شىء أن يهدئه ٠٠ وكان بصره قد خبا ، وكأنما كان ادراكه لعجزه سببا فى جعله يلزم السكون فى الوقت الذى يكون فيه الجميع قد استيقظوا وهبطوا ليطلقوه يهيم كيفما شاء ٠٠ لكن هذا السكون كان يفارقه فى الليل ، حين تفقد كل الكائنات بصرها لأمد موقوت ٠٠ وذات صباح ، وجد ميتا ، فبعث هذا ، الارتياح فى نفس كل انسان !

واكتهل الشتاء ، فألفت « جان » نفسها فريسة لعذاب مطرد، وقنوط شديد الوطأة ٠٠ لم يعد ماكانت تحس به حزنا أليما، حادا ، وانما حل محله أسى كئيب ، قاس ، لم يكن ثمة مايصرفها عنه !٠٠ لم يكن هناك من يفد لزيارتها ٠٠ وكانت الطريق

الممتدة أمام البيت مهجورة تقريبا .. ولقد تمر عربة نقل - فى بعض الاحايين - يقودها فلاح متضرج الوجه ، ملأت الريح قميصه فبدا كمنطاد أزرق !.. أو قد تمر - من آن الى آخر - عربة صغيرة من عربات الركوب ، أو ترى « جان » على البعد شخصين : رجلا وامرأة .. يبدوان كبقعتين صغيرتين فى صفحة الافق ، ثم يكبران رويدا حتى يبلغا الدار ، ثم يأخذان فى التضاؤل ثانية ، حتى يبدوان كحشرتين فى نهاية الطريق البيضاء التى كانت تمتد الى ماوراء مرمى البصر ، تختفى حينا ، وتظهر حينا ، وهى تمضى خلال التلال والوديان ..

★ ★ ★

◆ **وعندما** بدأت أعشاب الربيع تستوى على سوقها ،أخذت فتاة صغيرة - فى ثوب قصير - تمر بالدار كل صباح ، تسوق بقرتين عجفاوين ترعيان جوانب الحفر التى كانت تحف بالطريق .. فاذا حل المساء ، عادت الفتاة خلف البقرتين المتكاسلتين اللتين كانتا تخطوان خطوة واحدة كل عشر دقائق تقريبا ..

وكانت « جان » تحلم كل مساء بأنها تقيم فى قصر «الحور» .. وترى فى المنام أنها قد عادت الى القصر مع أمها وأبيها والخالة ليزون ، فتعيش فى الماضى ، وكثيرا ماكانت تحلم بأنها تعين أمها وهما تخطران خلال المروج . فكانت تستيقظ فى كل مرة لتنخرط فى البكاء ..

وكانت لا تنفك تفكر فى « بول » وتسائل نفسها عما كان يفعل ، وكيف أصبح مظهره ، وهل كان يفكر فيها .. وكانت اذ تهيم فى الحقول ، تفكر فى أشياء تعذبها ، لكن الحقد الذى كانت تكنه للمرأة التى سلبتها ابنها ، كان أشد ايلاما .. وكان هو الشىء الوحيد الذى حال بينها وبين استقدامه أو الذهاب لرؤيته .. كانت تتصور عشيقة « بول » تستقبلها لدى الباب متسائلة : « ماذا تبغين ياسيدتى ؟ » ، فكان كبرياؤها واحترامها لنفسها يصدانها عن تعريض نفسها لمثل هذا اللقاء!

٠٠ بل ان الكبرياء المتعالى الذى يعمر قلب أية امرأة عفيفة ، عاشت عمرها طاهرة ، كان يزيد من استنكارها لجبن أى رجل جعل من نفسه عبدا لشهواته ، لأن هذه الشهوات كانت لا تلبث أن تنحدر بالقلب الى الحضيض ٠٠ وكانت كلما فكرت فيما للحواس من أسرار داعرة ، وفى الاحضان الفاجرة، وفى كافة الالغاز التى تكتنف الغواية الجنسية ، تشعر بأن الانسانية جمعاء ليست ــ الى حدما ــ طاهرة !

وانقضى الربيع ، وأعقبه الصيف ٠٠ ثم عاد الخريف بأمطاره ، وأيامه المعتمة ، الراكدة ، وسحبه القاتمة الكئيبة ، فأحست « جان » بملل من حياتها الراهنة ، حتى لقد عقدت العزم على أن تبذل جهدا أخيرا لتستعيد « كتكوتها » ٠٠ وخيل اليها أن حبه المتأجج قد فتر ولا بد فى تلك الاثناء ، ومن ثم كتبت له رسالة ضارعة ، قالت فيها :

« **صغيرى العزيز**

« **أناشدك أن تعود الى ٠ فكر فى وقد غدوت هنا عجوزا عليلة ، وحيدة ، قضت عاما كاملا لا ترافقها سوى خادم ٠٠ اننى أعيش هنا فى بيت صغير على حافة الطريق ، وكم أنا شقية ، ولكن كل شىء خليق بأن يتبدل اذا ماكنت أنت هنا ٠٠ انك كل مالى فى الدنيا ، ولقد انقضت سبع سنوات منذ رأيتك، ولن تدرك مدى شقوتى ، ومدى استغراقى فى التفكير فيك ٠٠ لقد كنت حياتى، وحلمى ، وأملى الوحيد ، وحبى الأوحد ٠٠ وقد هجرتنى ونبذتنى ٠٠ فعد لى يا «كتكوتى » العزيز ٠٠ عد ، ودعنى أضمك الى صدرى ثانية ٠٠ عد الى أمك العجوز التى تتوق فى يأسها الى رؤيتك »**

« جان »

وأجاب الفتى بعد بضعة أيام ، بقوله :

« أمى العزيزة

« **ليس ابهج الى نفسى من أن آتى لأراك ، لولا اننى لا أملك مالا ، فلو وافيتنى بقدر منه فلسوف آتى ٠ ولقد كنت أفكر على أى الحالات فى مشروع آخر ، لو لازمة التوفيق لأتاح لى أن أحقق رغباتك ٠**

« **اننى لن أقوى قط على أن أكافىء المرأة التى شاركتنى متاعبى ، على وفائها وانكارها لذاتها ، لكنى أستطيع ــ على الاقل ــ أن أعترف علانية بما**

أسدته ٠٠ ان لها من الخلق النزيه كل ماتبغين ، وهى حسنة التربية والتعلم ، وقد كانت مبعث سلوى لى فوق ما أستطيع أن أصف ٠٠ وانى لأكون«حيوانا» لو اخفقت فى اظهار عرفانى لصنيعها ٠٠ ومن ثم فانى أستأذنك فى الزواج منها، واذ ذاك نستطيع أن نعيش جميعا معا فى بيتك الجديد ، لو انك غفرت لى ضلالى ٠ وانى لموقن من انك ستبادرين الى الموافقة ، لو انك عرفتها ٠٠ ان لها طباع سيدات علية القوم ، وانها لمهذبة مثقفة ، وأعتقد انك سوف تميلين اليها ٠٠ اما انا ، فليس فى وسعى ان أعيش بدونها !

« انى أترقب ردك فى لهفة ٠ وكلانا يبعث لك بحبه » ٠

« ابنك : فيكونت بول دى لامار »

وبهتت « جان » محزونة ٠٠ وجلست والخطاب فى حجرها ، تتمثل خلال سطوره حيل تلك المرأة اللعوب الغاوية ، التى أبت ان تدع « بول » يعود الى أهله ، واستبقته الى جانبها باستمرار ، وهى ترجو أن تقبل أمه أى شرط ، وتوافق على أى شىء ، من أجل أن تشفى شوقها الى أن يعود ابنها الى جوارها ثانية !٠٠ وراحت «جان» تفكر ، فى مرارة ، فى مدى تشبث بول بالاصرار على ايثار تلك المخلوقة عليها ٠٠ وراحت تتمتم مرددة : « انه لايحبنى ٠٠ لايحبنى ! »

وقالت لروزالى اذ أقبلت : « انه اليوم يريد أن يتزوج منها !»

فشدهت الخادم ، وقالت : « **أواه ياسيدتى ٠٠ ما أراك ستوافقين ٠٠ فليس للسيد بول أن يتزوج من مثل تلك البغى ! »**

فانتفخ كبرياء «جان» ، بتأثير حزنها على الاقل ، وقالت « كلا ياروزالى ٠٠ أبدا ! ٠٠ لكننى أرى أن أذهب لمقابلته ، مادام يأبى أن يأتى الى ٠٠ ولسوف نرى لمن يكون الظفر ! »

وبادرت تكتب الى « بول » معلنة عزمها على زيارته ، سائلة اياه ان يلقاها فى أى مكان غير الدار التى يعيش فيها مع تلك المرأة البغيضة ٠ وفيما كانت تنتظر رده ، أخذت تتأهب لرحلتها ، وشرعت « روزالى » تعد لها متاعها ، فلم تلبث ان

قالت وهى تطوى بعناية ثوبا قديما اعتادت « جان » أن ترتديه فى قصر « الحور » :

ـ ما أراك تذهبين بمثل هذه الثياب ، والا أخزيت نفسك ، وجعلت الباريسيات يخلنك خادما !

وانصاعت « جان » لروزالى ، فقصدتا معا الى (جوديرفيل)، حيث ابتاعتا قماشا أخضر منقوشا،أسلمتاه الى حائكة ، ثم ذهبتا لمقابلة المحامى « روسيل » ، الذى اعتاد ان يقضى شهرين من كل عام فى باريس ٠ وكانت قد انقضت ثمانية وعشرون عاماً منذ زارت « جان » باريس ، فأفضى اليها « روسيل » بكثير من الارشادات عن اجتياز الطرق ، وتفادى النشالين ، قائلا ان أسلم الطرق هى أن لا يحمل المرء من النقود أكثر مما تمس الحاجة اليه ، ثم يخيط الباقى فى ثنايا ثيابه ٠ وتكلم بعدذلك فترة عن المطاعم الرخيصة ، ذاكرا لها مطعمين أو ثلاثةتستطيع السيدات ارتيادها وحيدات ، واقترح عليها أن تنزل فىفندق (نورماندى) الذى كان جد قريب من محطة السكة الحديدية ٠٠ فلقد اعتاد دائما ان ينزل فيه ، وتستطيع « جان » ان تذكر انها قادمة من لدنه ٠ وكانت قد انقضت ستة أعوام ، منذ مدت السكك الحديدية الحديثة بين باريس والهافر ، لكن « جان » التى كانت تعيش فى أشجانها ، لم تر أى قسم منها ، بل ولم تر القاطرات البخارية التى أحدثت انقلابا فى الدولة بأسرها !

وانتظرت « جان » أسبوعا ، ثم اسبوعين ، بيد انها لم تتلق من «بول» ردا ٠ وكانت تخرج فى كل صباح لتقابل ساعى البريد ، وتسأله ملهوفة : « أليس لديك شىء من البريد لى اليوم ايها الاب مالاندان ؟ » ٠٠ فكان يجيبها دائما بصوته الاجش : « لا ٠٠ لا شىء اليوم »

وأيقنت « جان » أن تلك المرأة هى التى منعت « بول » من الرد ، ومن ثم قررت أن لا تنتظر بعد ذلك ، بل ترحل فورا • ورغبت فى أن تصحبها «روزالى» لكن الخادم أبت ، لما سيتطلبه ذلك من نفقات ، ولم تسمح لجان بأن تحمل معها أكثر من ثلاثمائة فرنك • وقالت : « اذا شئت مزيدا من النقود ، فاكتبى لى ، وسآمر المحامى بأن يبعث اليك بنصيب منها ، فاننى أخشى ان اعطيتك مبلغا كبيرا ، أن يأخذه منك بول ! »

وبعد انقضاء بضعة أيام من شهر ديسمبر ، أقبل « دنيس » ذات صباح بالعربة ليحملهما الى محطة السكة الحديدية ، اذ رأت « روزالى » أن ترافق « جان » اليها •• فلما بلغتاها ، سألتا عن ثمن تذكرة السفر ، وبعد أن ابتاعتاها ، وأسلمتا الحقيبة لتشحن فى عربة المتاع ، وقفتا ترتقبان القطار ، وكلتاهما مشوقة لأن ترى شكله ، حتى انهما نسيتا مؤقتا ما كان يكتنف الرحلة من أسى • وسمعتا أخيرا صفيرا منبعثا عن بعد ، فتطلعتا ، لتريا آلة ضخمة سوداء ، تقترب • وكانت تسعى نحوهما فى جلبة فظيعة ، تجر خلفها صفا من البيوت الصغيرة ، المتحركة •• وفتح احد الحمالين باب احدها ، فقبلت « جان » روزالى ، وصعدت•• فقالت لها الخادم : « وداعا يا سيدتي•• أتمنى لك رحلة ممتعة ، وعودا قريبا »

ـ وداعا ، ياروزالى

وانبعث الصفير ثانية ، وتحركت العربات ببطء مبتعدة ، ثم أخذت سرعتها فى الازدياد تدريجا ، حتى بلغت درجة مخيفة •• وكان فى العربة التى استقلتها جان ، راكبان آخران ، أخلدا للنوم ، فجلست «جان» ترقب الحقول ، والمزارع ، والقرى ، وهى تتراجع مسرعة •• وأفزعتها السرعة ، وأحست فجأة بأنها تلج مرحلة جديدة من حياتها • كانت تدفع فى عجلة الى دنيا جد مغايرة لتلك التى قضت فيها طفولتها الوادعة ، التى انقضت على وتيرة واحدة ••



وبلغت باريس فى المساء ، فتبعت الحمال الذى اختطف حقائبها ، وسار بها فى عجلة ، أثارت انفعالها ، اذ كانت تخشى أن يغيب عن بصرها ! •• وما أن بلغت مكتب الاستقبال بالفندق ، حتى ذكرت انها قدمت بتوصية من مسيو « روسيل » ، فتساءلت المرأة القائمة على المكتب ـ وكانت كتلة ضخمة من اللحم : « ومن يكون مسيو روسيل ؟» •• فأجابت « جان » ، مأخوذة بعض الشىء : « انه المحامى الذى يأتى من (جوديرفيل) لينزل هنا فى كل عام » •• فردت المرأة البدينة قائلة : « يجوز •• ولكننى لا أعرفه •• هل تريدين غرفة ؟ »

ـ أجل ياسيدتى

والتقط حمال حقيبتها وتقدمها صاعدا السلم الى احدى الغرف •• وكان قلب « جان » مثقلا بالهم ، فجلست الى منضدة صغيرة وطلبت قدحا من الحساء وقطعة من لحم الدجاج •• ولم تكن قد أكلت شيئا منذ الفجر ، فتناولت الوجبة التى طلبتها ـ فى غير تلذذ ـ على ضوء شمعة ، وهى تفكر فى ألف شىء : **تذكرت مرورها بباريس فى عودتها من شهر العسل ، وبعض نقائص « جوليان » التى بدأت اذ ذاك فى الظهور •• لكنها كانت فى ذلك العهد شابة ، مليئة النفس بالثقة والامل •• اما الآن فقد أحست أنها اكتهلت ، وان باريس ليست بالمكان الذى يروقها أو تليق به ، بل أحست بأنها خائفة •• ضعيفة •• سريعة الانفعال لأتفه حادث** • فلما فرغت من الأكل ، وقفت تطل من النافذة على الشارع المزدحم •• وودت لو خرجت ، لكنها لم تجسر على ذلك ، فقد وقر فى نفسها انها ولا بد ستضل طريقها ، ومن ثم أوت الى سريرها ، بعد أن أطفأت الشمعة ••

بيد أن الضجيج ، والشعور بالاغتراب ، والانفعال الذى تخلف عن الرحلة ، تعاونت جميعا على ابقائها مسهدة • وخفتت جلبة الشارع تدريجا ، دون أن يكسبها ذلك شيئا من الراحة ، اذ أن السكينة الناقصة التى تسود المدن الكبيرة كانت تقض راحتها ، وهى التى ألفت نوم الريف الهادىء العميق •• الذى يهيمن على كل شىء •• على الانسان ، والحيوان ، والنبات •• أما الآن ، فقد أحست حولها بقلق هائل ، غامض ••

كانت تترامى الى أذنيها خلال جدران الفندق أصوات تكاد لا تبين معالمها •• وكانت أخشاب الارض تئز أحيانا ، أو يصطفق مصراعا باب ، أو يرن جرس •• وفجأة ، وقد أوشك النعاس أن يواتيها حوالى الساعة الثانية من الصباح ، سمعت صرخة امرأة فى الحجرة المجاورة ، فاستوت فى الفراش جالسة •• ثم سمعت ضحكة رجل •• فاستيقظت من جديد •• حتى اذا شرع النهار فى الانبثاق ، راودتها الافكار عن « بول » •• فلم يكد الضوء يلوح فى السماء حتى بادرت الى ارتداء ملابسها ••

وكان « بول » يقيم فى شارع (سوفاج) فى وسط المدينة ، ففكرت فى أن تقطع المسافة على قدميها ، خضوعا لقواعد الاقتصاد الشديد التى وضعتها « روزالى » لها ‥ وكان الجو لطيفا ، تشيع فيه برودة مستعذبة أخذت تلذع وجهها ‥ وأخذ الناس يغذون السير فى الطرقات سعيا الى أعمالهم ٠ وانطلقت « جان » بأسرع ماتستطيع ، ماضية فى شارع أرشدت اليه ، وكان عليها اذا بلغت نهايته أن تنعرج يمينا ، ثم تنحرف يسارا ، حتى اذا وصلت الى ميدان ، كان عليها أن تسأل ثانية عن سبيلها ‥ لكنها لم تجد الميدان ، فسألت خبازا ، أشار عليها باتجاهات مغايرة للتى كانت تتبعها ‥ **ومن ثم بدأت من جديد ، لكنها أخطأت ، وهامت فى الطرقات متبعة اتجاهات أخرى ، حتى انتهى بها الامر الى أن ضلت طريقها تماما ‥ فأخذت تضرب فى الشوارع على غير هدى ، وهى تكاد تجن جزعا !** ‥ وأوشكت أن تستقل عربة ، فاذا بنهر «السين» يبدو امامها فجأة ، واذ ذاك سعت الى الميناء ‥ وبعد ساعة ، أو حوالى الساعة، ولجت شارع (سوفاج) ، فاذا به شارع صغير ، معتم ، شديد الضيق ‥ ووقفت أمام باب الدار ، وقد تملكها انفعال شديد لم تقو معه على أن تتقدم خطوة أخرى ‥ اذن ، فـ « الكتكوت » هنا ‥ فى هذا البيت بالذات ؟

وشعرت بيديها وركبتيها ترتعش ‥ لكنها ولجت الدار أخيرا ، واجتازت الردهة ، ثم رأت غرفة البواب ، فقدمت اليه قطعة من النقود وهى تقول : « هل لك فى أن تصعد فتنبىء السيد « بول دى لامار » بأن سيدة عجوزا ، صديقة لأمه ، ترجو أن تتحدث اليه ؟ » ‥ فأجاب الرجل : « انه لم يعد يقيم هنا ياسيدتى »

وسرت فى كيانها قشعريرة ، فقالت فى اضطراب : « وأين يسكن الآن ؟ » قال : « لست أدرى »

وأحست بأنها توشك أن تسقط ، وظلت لحظة لا تقوى على أن تنبس ببنت شفة ٠ وبعد جهد عنيف ، استطاعت أن تتمتم : « ومتى انتقل من هنا ؟ » ‥ فانطلق الرجل مجيبا : « منذ أسبوعين ‥ خرجا ذات ليلة ولم يعودا قط ، فهما مدينان لكل من فى الحى ‥ ومن هنا تدركين السر فى انهما لم يتركا عنوانهما ! »

ورأت « جان » أضواء تنبثق أمام عينيها ‥ ألسنة ضخمة من نار ، كأنما فجر انسان أمامها مدفعا !‥ لكنها استمدت من فكرة ثابتة تملكتها ، قوة كى تتجلد وتحتفظ بهدوئها ‥ كانت تبغى أن تحيط بكل شىء ، وأن تعثر على « بوليه » فعادت تقول : « اذن فهو لم يقل شيئا حين بارح الدار ؟ »

– آه ، لا ‥ لم يقل شيئا ما ‥ مضيا فى صمت لكى لا يضطرا الى السداد ‥ هذا كل مافى الامر !

ـ ولكن ، ألا يأتى أحد للسؤال عن خطاباته ؟

ـ قلما تصل اليهما خطابات ٠٠ انهما لايكادان يتسلمان عشر رسائل فى العام ، كما تعلمين ٠٠ ولقد حملت اليهما خطابا ، قبل أن يبرحا الداربيومين٠٠

٠٠ لعله كان الخطاب الذى أرسلته « جان » ؟ ٠٠ ومالبثت ان قالت : « اننى امه ، وقد جئت من أجله ٠ هاك عشرة فرنكات ، فاذا تلقيت أية أنباء أو معلومات ، فتعال وقابلنى فى فندق « نورماندى » بشارع (الهافر) ، وسأجزيك جزاء طيبا »

فأجاب الرجل : « لك ان تعتمدى على يا سيدتى »

وانصرفت «جان» ، وقد غدت لا تكترث بأية وجهة تنطلق اليها ٠٠ على انها ظلت على اسراعها فى السير ، كما لو كانت تجهد للحاق بموعد هام ٠٠ ومضت متعجلة ، ترتطم ـ بين آن وآخر ـ بأشخاص يحملون بعض الحزم ٠٠ وأخذت تعبر الطريق غير آبهة بالعربات ، فاجتلبت على نفسها سباب الحوذية ! ٠٠ وراحت تتعثر فى البالوعات ، وهى تواصل سيرها ، غير شاعرة اطلاقا بما حولها ٠٠

وألفت نفسها فجأة فى حديقة ، وقد برح بها التعب ، فتهالكت على أحد المقاعد الطويلة ٠٠ ومكثت برهة طويلة ، تنتحب فى خفوت ، والمارة يقفون ليحملقوا فيها ٠٠ ثم أحست ببرد ، فنهضت لتخرج ، وهى محطمة ، ضعيفة ، حتى ان ساقيها أوشكتا ان تتخاذلا عن حملها ٠٠

وودت أن تقف لتنال قسطا من طعام ، لكنها لم تجرؤ على ولوج مطعم ، اذ أحست بأن حزنها كان يبدو جليا لأبصار الجميع !٠٠ وأحيانا كانت تتوقف أمام باب مطعم ، تحدق داخله ، فاذا رأت الناس فيه جلوسا الى الموائد ، بادرت بالفرار قائلة لنفسها : « سأدخل المطعم التالى » ٠٠ لكنها لم تدخل المطعم التالى، كما لم تدخل المطعم السابق !٠٠ وفى النهاية ابتاعت رغيفا صغيرا من أحد المخابز ، وشرعت تلتهمه فى الشارع !٠٠ وأحست بظمأ شديد ، بيد انها لم تدر أين تذهب لتطفئه ، فقاومته ٠٠

ومرت تحت بوابة يتوجها قوس ، ونفذت الى حديقة أخرى ، تحوطها الاقواس ٠٠ وأدركت انها فى حديقة « باليه روا » ٠ ولما كانت حرارة الشمس ، والمشى، قد انهكاها ، فقد جلست مرة أخرى ، لساعة أو اثنتين ٠٠ وكان فى الحديقة جمع من الناس ، من أولئك الذين يمتازون بالاناقة ، ويجيدون الانحناء والابتسام ٠٠ الذين أوتيت نساؤهم جمالا ، ورجالهم ثراء ، فباتوا لايعيشون الا للمظاهر واللهو ٠٠ واذ أحست « جان » انها غريبة وسط هذا الحشد المرح ، تهيأت للانصراف ، لولا أن خطر ببالها فجأة ان « بول » ربما كان بين هؤلاء الناس ، فبدأت تسير بينهم ، وتتفرس فى وجوههم ملهوفة ٠٠ وأخذ القوم يلتفتون

متطلعين اليها ، ومنهم من راح يضحك ويشير اليها ، فبادرت الى الفرار ، اذ أدركت ان مظهرها ، وثوبها الذى اختارته لها « روزالى » وخاطته حائكة القرية ، كان سبب ازدرائهم اياها !

بل انها لم تجسر على أن تسأل المارة عن الطريق ، لكنها مالبثت فى النهاية أن سألت أحدهم ، واهتدت الى فندقها ثانية ٠٠ فقضت بقية نهارها على مقعد بجوار فراشها ٠ ثم تناولت بعض الحساء ، وقطعة من اللحم ، كما فعلت فى الليلة السابقة ، وأوت الى فراشها ٠٠ لكنها أدت كل ذلك بحركة آلية ، بحكم العادة !

★ ★ ★

• وقصدت فى اليوم التالى الى قسم البوليس تستعين بالسلطات فى بحثها عن ابنها ٠ ولم تتلق وعدا بشىء محدد ، أكثر من أن المسألة ستكون موضع عناية !٠٠ ثم راحت تهيم فى الطرقات ، آملة ــ ماتزال ــ أن تقابل « بول » ٠٠ وازداد شعورها بأنها ــ وسط الزحام والعجيج ــ كانت أكثر وحدة ،وحيرة وتعاسة ، مما كانت بين الحقول المقفرة من الناس !

وعندما عادت الى الفندق فى المساء ، قيل لها ان رجلا سأل عنها ، وقد جاء بشأن ابنها السيد « بول » ، وانه وعد بالعودة في اليوم التالى ٠٠ فشعرت بالدم يتدافع الى رأسها ، ولم يغمض لها جفن فى تلك الليلة ٠ لعله كان هو ؟ أجل ، لابد انه كان « بول » وان أوحت الاوصاف التى ذكرت لها بأنه شخص لم تعرفه من قبل ٠

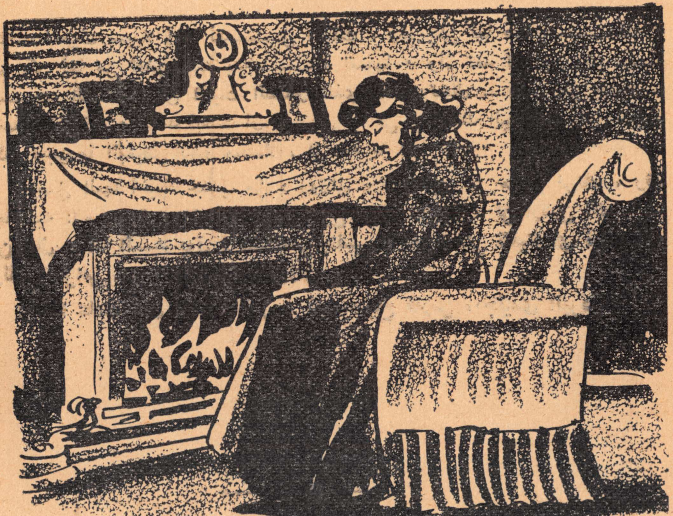
وحوالى الساعة التاسعة من الصباح التالى ،سمعتطرقاعلى الباب ، فصاحت : « ادخل ! » ٠٠ وقد تأهبت لان تطير الى ابنها بذراعين مبسوطتين ٠٠ لكن الداخل كان رجلا غريبا ، غير « بول » !٠٠ وبعد أن اعتذر عن ازعاجه اياها ، ذكر انه جاء يتقاضى دينا من ديون «بول» ! وأحست جان ــ أثناء كلامه ــ انها كانت تبكى على الرغم منها ، فأخذت تمسح الدموع بأطراف اناملها بمجرد انبثاقها من عينيها ٠٠ وكان الرجل قد علم بوصولها من بواب شارع (سوفاج)، ولما كان عاجزا عن العثور على الشاب ، فانه سعى الى أمه ٠ ثم قدم لها ورقة تناولتها فى غير وعى ، وقرأت فيها رقما : « ٩٠ فرنكا » ، فتناولت المبلغ من كيسها ودفعته للرجل

ولم تخرج فى ذلك اليوم ٠ فلما كان اليوم التالى ظهر آخرون من أصحاب الديون ، دفعت لهم كل ماكانت تملك ، فلم تحتفظ بغير فرنكات قلائل ٠٠ وكتبت الى « روزالى » تطلعها على الموقف ٠٠ وبقيت فى الايام القلائل التالية تنتظر ردا من «روزالى» ، وتقضى وقتها هائمة فى المدينه دون ما هدف ٠٠ فما

كانت لتعرف سبيلا آخر لقتـــل الوقت ، ولم يكن لها هنا أصـــدقاء • لم يكن لها من تفضى اليه بدخيـــلة نفسها • ولم تعد لها من رغبـــة ســوى العـودة الى البيت الصغير الذى كانت تخال ـ منذ زمن قصير ـ انها شقية فيه •• فقد أيقنت أن لا عيش لها فى غير ذلك البيت الصغير ،حيث كان وجودها البغيض يبدو محتملا ، الى حد ما !

ووصل اليها أخيرا خطاب من « روزالى » ، انطوى على مائتى فرنك ، وقد جاء فيه : « **سيدتى جان •• عودى بأسرع ما تستطيعين • لن أرسل لك مزيدا من المال • أما السيد بول ، فسأذهب بنفسى لأحضره متى تلقينا أى نبأ منه • ولك احترامى » •• خادمتك « روزالى »**

وهكذا عادت جان الى (باتفيل) ذات صباح قارس ، جليدى البرد



الفصل الخامس عشر

◆ **أبت** جان بعد عودتها من باريس أن تخرج فى رياضتها المعتادة للسير على قدميها ، أو تهتم بأى شىء • كانت تستيقظ كل صباح فى موعد لا يتغير ، فتطل من النافذة تتفقد حال الجو ، ثم تهبط السلم وتجلس أمام المدفأة فى قاعة المائدة • كانت تجلس هناك يوما بعد يوم ، جامدة لا تتحرك ، وعيناها تحملقان فى النار ، وهى تتذكر كل الاحزان المريرة التى شابت حياتها •• ولا يلبث الظلام ان يخيم على الحجرة الصغيرة رويدا ، دون أن تتحرك « جان » ، اللهم الا لتذكى النار أو تغذيها بمزيد من الخشب • حتى تقبل « روزالى » فى النهاية حاملة مصباحا ، لتقول لها : « هيا ياسيدتى جان •• يجب أن تتمشى قليلا ، والا فانك لن تستطيعى ان تتناولى شيئا من الطعام »

• ولكن الافكار والهواجس كانت لا تفتأ تراود « جان » ، وصارت تتعذب للصغائر • غدت الامور التافهة تحتل قسطا ضخما من عقلها المختل • **كانت تعيش فى الماضى ، تحلم بشبابها ، وبشهر العسل الذى قضته فى (كورسيكا) •**

وكانت مناظر الخلاء فى الجزيرة ـ المناظر التى نسيتها منذ زمن طويل ـ تظهر فجاة وسط لهب من النار المتراقص ، كأنما بطريقة سحرية ، فاذا بها تتذكر كل صغيرة ، وكل حادث ، وكل شخص ذى صلة بالجزيرة ٠٠ وكان وجه الدليل « جان رافولى » يطاردها ٠٠ بل كانت تخال أحيانا انها تسمع صوته !

وكانت فى أحيان أخرى تتذكر السنين الهادئة ، سنين طفولة « بول » ٠٠ وكيف كان واياها يغنيان بالحديقة ، ويركعان مع الخالة ليزون فى الحديقة ، وكل من المرأتين تحاول أن تبذ الاخرى فى ارضاء الغلام بزراعة أكبر عدد من النباتات ٠٠ وكانت الذكرى تحرك فمها فيتخذ الشكل الذى تنطق به كلمة : « كتكوت ٠٠ كتكوتى الصغير » ، وكأنها تخاطبه فعلا !٠٠ ثم تكف عن الحلم بالماضى ، وتقضى الساعات ترسم فى الهواء حروف اسم ابنها ٠ ترسمها ببطء أمام النار ، وتتوهم انها تراها فعلا ٠٠ ثم تتخيل انها أخطأت ، فتبدأ من جديد ، وتكرر الكتابة فى الهواء مرة بعد مرة ، محاولة ان تقسر نفسها على أن تكتب الاسم كله ، رغم ارتجاف ذراعها من فرط التعب ٠٠ ولا تلبث ان تنفعل ، فتخلط بين الحروف ، وتأخذ كلمات أخرى فى الظهور ٠٠ ثم تستسلم « جان » للقنوط

وأخذت تنتابها الوساوس ، وتستسلم للاضطراب ، كما يفعل أولئك الذين يمنون بالعزلة ، فكان أتفه تغير فى نظام الاثاث يثير غيظها وانفعالها ! وكانت « روزالى » لا تفتأ تستحثها على الخروج لتتمشى ، لكن « جان » كانت لاتلبث بعد عشرين دقيقة ان تقول انها متعبة ، وتجلس على حافة الطريق ٠ بل انها سرعان ماكانت تنزعج لاية حركة ، فتظل جالسة فى السرير الى ساعة متأخرة من الليل ٠ ولقد كانت طيلة حياتها حريصة على عادة القفز من السرير بمجرد أن تفرغ من احتساء قهوتها ، اذ كانت ذات شغف خاص بقهوة الصباح ، لا تضحى بها الا على مضض ، وتظل ترتقب فى صبر نافد ان تحملها « روزالى » اليها ٠٠ واذ ذاك تجلس فى الفراش ، وتحتسيها فى نهم ، ثم تطرح جانبا أغطية الفراش وتشرع فى ارتداء ثيابها ٠٠ **ولكنها أخذت تنساق الآن تدريجا لعادة الاستغراق فى أحلام اليقظة بضع دقائق بعد أن تفرغ القدح ! ثم بدأت تألف العودة للاستلقاء من جديد فى كل صباح ، والبقاء فى السرير حتى تأتى « روزالى » غاضبة فتلبسها ثيابها بالاكراه !**

وأخذت تفقد ارادتها رويدا ، فكانت كلما سألتها « روزالى » رأيها ، أو استفسرت منها عن شىء ، أجابت : « افعلى مايحلو لك ياروزالى » ٠٠ ثم بدأت تعتقد أن النحس يطاردها فى غير هوادة ولا اشفاق ، الى درجة جعلتها تؤمن بالقدر كأهل الشرق !٠٠ وانسحقت نفسها من فرط ما اعتادت أن ترى آمالها وأحلامها تمنى دائما بالخيبة ، فلم تعد تجرؤ على الانتعاش بأى أمل جديد ، أو الاقدام على أى عمل جديد ٠٠ بل أصبحت تتردد أياما قبل الاقدام

على أبسط مهمة ، وهى موقنة من أن كل ماتفعله لابد أن يتمخض عن خطأ !

وكانت لا تفتأ تقول : « ما أظن أحدا قد لاقى من سوء الطالع ما نالنى طيلة حياتى ! » ٠٠ فكانت روزالى تجيبها : « **ما الذى كان يصير اليه أمرك لو انك كنت مضطرة لان تعملى كى تكسبى قوتك ، فتنهضى من نومك فى الساعة السادسة من كل صباح ، وتنطلقى الى العمل الشاق طيلة اليوم ؟ ٠٠ كم من اناس تضطرهم ظروف الحياة لان يفعلوا هذا ، حتى اذا طعنوا فى السن وعجزوا عن العمل ، ماتوا فى فقر ومسغبة !** »٠٠فكانت جان تتمتم : «ولكن ابنى هجرنى٠٠ لقد غدوت وحيدة » ٠٠ واذ ذاك كان حنق « روزالى » يحتدم ، فتقول : « وماذا لو فعل ؟ ماقولك فى أولئك «الاطفال» الذين يضطرون الى الخدمة العسكرية ، أو يستقرون فى أمريكا ؟ » ــ فقد كانت أمريكا فى عينى « روزالى » بلدا مبهما ، بدائيا ، يذهب اليه الناس آملين أن يجمعوا ثروات ، فلا يعودون منه أبدا !٠٠ وكانت «روزالى» تستطرد قائلة : « ان الابناء يتركون آباءهم دائما ، طال الزمن بهم أو قصر ، فان الشباب والكهولة لم يخلقا ليعيشا معا ٠٠ ثم ، ماذا لو انه كان قد مات ؟ »

٠٠ ولم تكن « جان » تحير جوابا !

★ ★ ★

◆ **وعندما** أقبل الربيع ، تحسنت صحة « جان »بعض الشىء ، لكنها استغلت هذا التحسن كى تزداد انغماسا فى أحزانها ! وعندما صعدت ذات يوم الى غرفة السطح ، التى كانت تستخدم كمخزن ، تلتمس فيها شيئا ، عثرت على صندوق اشتمل على عدد من التقاويم (النتائج) القديمة التى كانت تحتفظ بها بحكم العادة ٠٠ **وكأنما عثرت على تلك السنين ذاتها ! فقد غلبتها المشاعر الجياشة ، وهى تنظر الى البطاقات ذات الاشكال الزخرفية ، وما لبثت أن حملتها وهبطت الى قاعة المائدة ، حيث بدأت تنشرها على المنضدة حسب ترتيبها الزمنى ٠ ثم تناولت أول بطاقة منها : بطاقة تقويم العام الذى غادرت فيه الدير** ٠٠ وأخذت تتأملها طويلا ، وتنعم النظر فى التواريخ التى كانت قد ضربت عليها خطوطا٠٠ ثم شرعت تبكى ، ببطء ، وحرقة ، وبالدموع السخينة لامرأة عجوز ٠٠ كانت هذه البطاقات المنشورة على المائدة تمثل كل حياتها التعسة !

ثم فطنت الى أنها تستطيع بهذه التقاويم ان تتذكر كل شىء فعلته فى حياتها ! واستسلمت لهذه النزوة ، فبدأت تعود القهقرى الى الماضى ٠٠ وثبتت الى الحائط البطاقات التى اصفر لونها لقدمها ، ومضت تقضى الساعة تلو الساعة أمامها جميعا ، تسائل نفسها عما فعلت فى هذا الشهر أو ذاك ٠ وكانت قد وضعت علامات أمام جميع التواريخ الهامة فى حياتها ٠٠ وكانت أحيانا تتذكر شهرا بأكمله ، اذا ما ربطت بين حادث وآخر ، وبين جميع المواقف الصغيرة التى

كانت تسبق أو تعقب حدثا هاما ٠٠ **واستطاعت بالامعان فى التفكير ، وباجهاد ذاكرتها ، أن تستعرض أكثر احداث العامين الاولين اللذين قضتهما فى ضيعة « أشجار الحور » ٠٠ وكانت هذه الفترة من حياتها حية فى ذاكرتها بوجه خاص، بعكس السنوات التى اعقبتها ، والتى بدت ملتفة فى غلالة من ضباب ، بحيث صارت تخلط بينها** ٠٠ وكانت تعكف أحيانا على تقويم تتفرس فيه ساعات ، دون أن تقوى على تذكر ما اذا كان هو العام الذى حدث فيه كذا أو كيت من الاحداث ؟٠٠ وتروح تدور فى قاعة الطعام بخطى بطيئة تتأمل هذه الاشياء التى كانت تذكرها بالماضى ، والتى كانت تتراءى لها كمعالم ترشدها الى الطريق وهى تصعد على جبل من الجماجم !٠٠ ولا تلبث أن تجتذب احداها انتباهها ، فتجلس تحدق فيها بقية نهارها !

★ ★ ★

◆ **ولم** يمض وقت طويل حتى دب نشاط الحياة فى الحقول ، فاذا البذور تنبت ، والاغصان تزهر ، والجو يتضوع بعبير زهر التفاح العبق ، والبساتين تدب فيها حمرة وردية ٠٠ فلما اشرف الصيف ، اشتد بجان التململ والاضطراب، حتى لم تعد تقوى على البقاء ساكنة ٠٠ فصارت تخرج الى الخلاء عشرين مرة فى اليوم ، تذكى بتسللها خلال المزارع وقدة العذاب فى نفسها ! كان يكفى أن تلمح نصف اقحوانة متوارية ، أو شعاعا من الشمس بين أوراق الشجر ، أو انعكاس صورة السماء على صفحة بركة من ماء المطر ٠٠ حتى تقشعر بالانفعال ، اذ يبعث المنظر فى نفسها صدى لاحساس خفق به قلبها يوما وهى شابة ! ولانها لم يعد لديها ما تتطلع اليه ، فان تذكر ذلك الجو البهيج كان يثير فى كيانها عن هزة الطرب التى كانت تستشعرها عندما كانت حياتها بأسرها ما تزال فى ضمير الغيب لا تدرى شيئا عنها ٠٠ بيد ان هذا السرور كان مشوبا بالالم ، وكانت يقظة الطبيعة هذه التى كانت كفيلة بأن تشيع فى نفسها الابتهاج ٠ تبدو أكثر اشاعة للأسى فى ذهنها المحزون وقلبها الكسير ٠ **كان كل شىء يبدو متغيرا عما اعتادت أن تراه عليه فى الماضى : فالشمس أقل اشاعة للدفء من ذى قبل ، والسماء أقل زرقة ، والعشب أقل خضرة ، والزهور أقل نضارة ٠٠ ومن ثم لم تعد هذه الاشياء تحرك أحاسيسها كما كانت تحركها من قبل ٠٠ وكانت فى بعض أحيان عابرة ، تفعم احساسا بأنها بخير ، فلا تلبث أن تجد نفسها منساقة للاحلام ، ويعاودها الرجاء ثانية ٠٠ فليس من الممكن الاستسلام دائما لليأس التام ــ مهما كانت قسوة القدر ــ اذا ما أشرقت الشمس ، وصحت السماء !**

وكانت تهيم على غير هدى ، ساعة بعد ساعة ، يحدوها ذلك الانفعال الداخلى ٠٠ وقد تجلس أحيانا على حافة الطريق تستعرض متاعبها ، وتسائل نفسها :

لم لم تلق من الحب ماتلقاه غيرها من النساء ؟ ·· لما ذا حرمت من أبسط المسرات التى تداخل أى وجود خلو من الاحداث ؟·· وكانت أحيانا تنسى ـ لحظة فقط ـ انها عجوز ، وان ليس لديها ماتتطلع اليه من متع ، ولم يعد بين حياتها ونهايتها سوى بضع السنوات الباقية الموحشة ·· كانت تنسى هذا ، لحظة ، فتنهمك فى بناء قصور فى الهواء ، وفى رسم خطط بهيجة للمستقبل ، كما كانت تفعل وهى فى السادسة عشرة ! ثم لا تلبث أن تواتيها الحقيقة العارية ، حقيقة وجودها المرير ، فتنهض من جديد بقلب مثقل ، وتعود الى البيت وهى تتمتم لنفسها : « يالك من عجوز حمقاء !·· عجوز حمقاء ! »

وكانت « روزالى » لا تفتأ تنصحها بأن تسكن ، وأن تكف عن الجرى خلال الريف ، فكانت جان تقول لها : « لا أستطيع ·· اننى أشبه « سلوتر » قبيل موته ! »

وذات صباح ، اقبلت « روزالى » على مخدع « جان » مبكرة عن عادتها ، وقالت وهى تضع قدح القهوة على المنضدة : « عجلى باحتساء قهوتك ، فان « دنيس » فى الانتظار ليقلنا الى ضيعة « اشجار الحور » ، اذ لدى بعض أعمال أريد انجازها هناك »

واحست « جان » بدوار لفرط انفعالها ، ولم تكد تصدق ـ وهى ترتدى ثيابها ولا تكف عن الارتجاف ـ انها سترى مرة أخرى دارها الحبيبة !

وكانت السماء صحوة ، صافية ، فأخذ جواد « دنيس » يهرع فى قفزات مرحة ـ بين آن وآخر ـ وهم منطلقون ·· وما أن بلغوا (ايتوفان) ، حتى كانت « جان » لا تكاد تتمالك أنفاسها من شدة انفعالها · واذ أبصرت العمودين المقامين من الطوب الى جانبى بوابة الضيعة ، ملأت رئتيها بالهواء ، وكأنها أمام شىء يتغلغل الى أعمق أغوار نفسها ! ·· ثم تركوا الجواد فى مزرعة «كويار»، وبينما ذهبت « روزالى » و « دنيس » لانجاز عملهما ، سأل المزارع « جان » عما اذا كانت تحب أن تزور القصر ـ اذ كان مالكه غائبا ـ فلما ردت بالايجاب، أعطاها المفتاح ، فذهبت بمفردها ·· وحين بلغت القصر ، وقفت جامدة تحملق فيه! لم يكن قد اعترى مظهره الخارجى أى تغير منذ بارحته · وكانت كل النوافذ مغلقة ، والشمس تصلى جدران المبنى التى لوحتها عاديات الجو بالسمرة ·· وسقطت على ثوبها شظية من خشب حملها الهواء ، فلما تبينت انها من شجرة الدلب ، يممت شطر الشجرة ، وتحسستها فى شغف ، كما لو كانت شيئا حيا ! ·· ومست قدمها قطعة بالية من الخشب ، فألفتها آخر بقية من المقعد الخشبى الذى طالما جلست عليه مع أحبائها ·· المقعد الذى أقيم فى تلك البقعة يوم جاء « جوليان » فى أول زيارة أداها للقصر !

وصادفت « جان » عناء فى فتح الباب المفضى الى الردهة ، لأن الصدأ كان

قد علا المفتاح فأبى أن يدور ‥ لكن القفل لم يلبث أن انصاع لها فى النهاية ، فانفرج الباب بعد ذلك من أول دفعة منها ‥ وكان أول مافعلته حين دخلت ، أن هرعت الى غرفتها السابقة ٠ كان الورق الذى يكسو جدرانها قد جدد ، حتى أوشكت أن تنكر الحجرة ، لكنها حين فتحت احدى النوافذ وأطلت منها ، أحست بتأثر أوشك أن يدفع الدموع الى مقلتيها ، اذ رأت مرة أخرى ذلك المنظر الذى أحبته الحب كله : البستان ، وأشجار الدردار ، والسهل ، والبحر وقد تناثرت عليه الاشرعة المغبرة ، التى بدت من بعيد وكأنها جامدة لا تتحرك ‥

ثم انطلقت تجوس خلال الدار كلها ، وتتفقد البقع التى كانت تألفها على الجدران ‥ ووقفت لتتأمل ثقبا صغيرا من الطلاء كان البارون قد أحدثه بعصاته ، ثم اعتاد أن يدك فيه عصاته كلما مر به ، مقلدا ماكان يذكره عن طفولته ومبارزاته الصبيانية ‥ كما عثرت جان فى مخدع أمها على دبوس صغير ذى رأس ذهبية كان مغروسا فى الجدار ، خلف الباب ، وقد خيمت على مكانه العتمة ‥ كانت جان قد غرسته بنفسها هناك منذ زمن بعيد ، وكثيرا ماراحت بعد ذلك تبحث عنه فى كل مكان ‥ فلما وجدته الآن ، انتزعته وقبلته ، وقررت ان تأخذه معها تذكارا لا يقدر بمال ٠ ٠

ثم ولجت جميع الغرف الاخرى ، وهى تتبين بقعا وعلامات لا تكاد تبين ، على الستائر التى كانت لا تزال فى أماكنها ‥ ورأت مرة أخرى الاشكال الغريبة التى كان خيالها يرسمها على كساء الاثاث ، ونقوش حافة المدفأة ، والظلال التى كانت منطبعة على السقف المتسخ ‥ ومضت خلال الدار الواسعة ، الساكنة ، تطوف بها فى هدوء وكأنها مقبرة ، فقد أحست بأن حياتها كلها كانت دفينة هناك ! ‥ فلما دخلت قاعة الجلوس ، اضطرت الى أن تتريث حتى تألف عيناها الظلام ٠ وعندئذ استطاعت أن تتبين رويدا كساء المقاعد التى نقشت عليها صور الطيور ٠ وكان ثمة مقعدان أمام المدفأة ، وكأن صاحبيهما قد فارقاهما منذ لحظات ، فلم تكد تلمحهما حتى تدافعت الذكريات القديمة فجأة الى ذهنها ، ففطنت الى الرائحة المبهمة التى كانت تشيع فى الحجرة ، والتى طالما امتازت بها ، كما يمتاز كل شخص بعبير خاص ‥ كانت رائحة محسوسة ، لكنها مع ذلك خفية ، كعبق عطر ثمين ‥ وأخذت تتنفس بسرعة وهى تحدق فى المقعدين ، وتنشق عبير الماضى ! ‥ وكما لو كانت تعيش فى رؤيا حالمة ، توهمت انها ترى أباها وأمها يجلسان على المقعدين كما كانت عادتهمـــا ، فأجفلت فى ذعر ، واذ ذاك تعثرت فى عتبة الباب ، فتعلقت باطاره مستندة اليه ، وهى مازالت تحملق فى المقعدين ‥ وتلاشت الرؤيا ، لكن « جان » ظلت مسمرة فى مكانها عدة دقائق ٠ فلما افاقت ، وقر فى ذهنها انها توشك ان تفقد عقلها ، فتحولت وانطلقت تجرى ‥ وحانت منها التفاتة وهى تفعل الى

اطار الباب ، فرأت « مقياس بوليه » ! ٠٠ كان كثير من العلامات الواهنة التى حفرت فى فترات ، والارقام الدقيقة التى نقشت الى جوارها لتدل على الشهر ، وعلى عمر الطفل وطوله ، لا تزال واضحة الى درجة يمكن معها تمييز خط البارون الكبير الثابت ، وخط الخالة ليزون المرتعش ، وخطها هى الدقيق ٠٠ وخيل اليها انها ترى « بوليه » هناك ، وقد ألصق جبينه الصغير بالحائط ريثما يقاس ارتفاعه ، والبارون يهتف : « لقد نما يا «جان » سنتيمترا خلال فترة لم تتجاوز ستة أسابيع ! » ٠٠ وازاء جبروت الذكرى شرعت «جان» تقبل المكان فى وجد فياض ٠٠

– ياسيدة جان ٠٠ ان الغداء معد !

وسمعت « جان » نداء « روزالى » ، فخرجت وهى تحس بدوار ٠ وحين جلست الى المائدة كانت مرتبكة ، عاجزة عن ان تفهم شيئا مما قيل لها ٠٠ وراحت تأكل فى حركات آلية ، وتنصت الى الكلمات دون أن تسمعها !٠وبذهن شارد ، كانت تجيب زوجات المزارعين كلما استفسرن منها عن صحتها،وتقبلت قبلاتهن فى جمود ، وردت بقبلات طبعتها بهذا الجمود عينه ٠٠ وأخيرا ، صعدت الى العربة

ولما لم يعد بوسعها أن ترى قمة القصر العالى من خلال الاشجار ، خيل اليها أن ثمة شيئا يتضعضع فى فؤادها ٠٠ وداخلها شعور بأنها قد ودعت دارها القديمة ، الى الابد !

★ ★ ★

◆ **ويمموا** لفورهم صوب (باتفيل) ٠ وفيما كانت « جان » تهم بدخول البيت ، رأت ورقة بيضاء تحت الباب ، كان ساعى البريد قد وضعها أثناء غيبتهما ٠٠ وعرفت فى الحال خط « بول » ، ففضت الرسالة فى لهفة وألم جنونى غريب ٠٠ واذا فيها :

« **أمى العزيزة**

« **لم أكتب اليك منذ أمد طويل ، لاننى لم أشأ أن تأتى الى باريس سدى ، وكنت طيلة الوقت عاقدا عزمى على أن آتى بنفسى لأراك ٠ اننى فى هذه اللحظة فى هم عظيم وعناء ، فقد وضعت زوجتى منذ ثلاثة أيام طفلة ، وهى الآن تحتضر ٠ ٠وليس لدى أى قدر من المال ، كما اننى لا أدرى ما الذى أفعله بالطفلة التى تحاول زوجة البواب وسعها أن تغذيها بمرضعة من زجاج ، لكننى أخشى أن أفقدها ٠٠ فهل فى وسعك أن تأخذيها ؟ ٠٠ اننى لاأملك ان اعهد بها الى مرضعة لاننى لا أملك مالا ، ولذا فأنا فى حيرة لا أدرى ماذا ينبغى أن افعل ٠٠ أضرع اليك أن تجيبينى بعودة البريد ٠٠ »**

ابنك المحب : « بول »



وتهالكت جان على مقعد ، وقد غشيها ضعف لم تقو معه على ان تدعو روزالى وما لبثت الخادم ان جاءت فقرأتا الخطاب معا مرارا ، ثم جلستا ، تحدق كل منهما فى الاخرى ، فى صمت ٠٠ وأخيرا قالت « روزالى » : « سأذهب كى أحضر الطفلة ، فلسنا نملك أن نتركها تموت ! »

ـ حسن جدا ٠٠

ـ حسنا ، ارتدى قبعتك ، وسنذهب لزيارة المحامى فى (جوديرفيل) ، اذ لابد للسيد بول من أن يتزوج من المرأة ـ اذا كانت موشكة على الموت ـ من أجل الطفلة !

ولبست « جان » قبعتها دون أن تنبس بكلمة ، وقد أفعم قلبها بسعادة أبت أن تظهرها ، لانها كانت من تلك الالوان الخسيسة من السعادة ، التى يذكيها الناس سرا فى خبايا قلوبهم ، لكنهم رغم ذلك يستحون منها : أخيرا ٠٠ هاهى ذى عشيقة ابنها توشك ان تموت !

وأدلى المحامى بارشادات مسهبة حملته « روزالى » على أن يكررها مرتين وثلاثا، حتى اذا وثقت من أنها على دراية تامة بما تفعل ، قالت : « لا تحملى هما ٠٠ سأعنى بكل شيء » ٠٠ ثم رحلت الى باريس فى المساء عينه

★ ★ ★

◆ **وقفت** « جان » اليومين التاليين فى كرب وعذاب ، لا تستطيع أن تركز تفكيرها فى شيء ما ٠ وفى اليوم الثالث ، تلقت من «روزالى» رسالة تضمنت بايجاز انها ستعود فى ذلك المساء بالقطار ٠٠ ولا عبارة أكثر !٠٠ وحوالى الساعة الثالثة بعد الظهر أرسلت « جان » الى جار لها تستفسر عما اذا كان بوسعه ان يقلها فى عربته الى محطة السكة الحديدية فى (بيزفيل) لتستقبل خادمتها ٠٠

ووقفت على الرصيف وقد علقت نظراتها بالقضبان التى كانت تبدو متلاقية عند الافق ٠ وكانت تنظر الى الساعة من وقت لآخر : لا تزال ثمة عشر دقائق ٠٠ خمس ٠٠ اثنتان ٠٠ وأخيرا حان الموعد المحدد للقطار ، بيد انه لم يكن قد بدا بعد للابصار !٠٠ ثم لم تلبث أن رأت سحابة من دخان ابيض ، تتحرك تحتها بقعة سوداء أخذت تزداد حجما بالتدريج ٠٠ وأقبلت القاطرة الضخمة الى المحطة ، تنفث الدخان وهى تهدىء من سرعتها ٠٠ وأرسلت « جان » بصرها ملهوفة خلال كل نافذة ، والعربات تمر أمامها ٠٠ وراقبت الناس وهم يهبطون من القطار : فلاحين فى ثياب رخيصة ، وزوجات المزارعين يحملون سلالا ، وعددا ضئيلا من الاعيان يرتدون قبعات عالية ٠٠ **وأخيرا ، ظهرت « روزالى » تحمل بين ذراعيها مالاح كأنه حزمة من ثياب ٠٠ وهمت « جان » بأن تسعى الى «روزالى» ، لكن القوة تلاشت من ساقيها ، فخشيت أن تهوى على الارض اذا هى تحركت ٠٠**

وهتفت الخادم : « أهلا ياسيدتى ٠٠ هاأنذا قد عدت ، وان لم تكن عودتى سهلة »

– وماذا وراءك ؟

– لقد ماتت فى الليلة الماضية ٠٠ على أنهما كانا قد تزوجا ٠ وهاهى ذى طفلتهما !

وبسطت ذراعيها بالطفلة التى كانت تختفى فى اللفائف ، فتناولتها « جان » بذهن شارد ٠٠ وخلفتا المحطة ، مستقلتين عربة كانت فى انتظارهما ٠٠ وقالت « روزالى » : لسوف يأتى السيد بول الى هنا بمجرد تشييع الجنازة ٠٠ وأظنه سيصل غدا ٠٠ فى القطار الذى يصل فى هذا الموعد بالذات »

فهمست « جان » : « بول ٠٠ »

وكانت الحقول الخضراء الموشاة بالزهور الذهبية ، وبأزهار الخشخاش الارجوانية الحمرة ، غارقة فى الضـــوء المنساب من الشمس الغـــاربة ٠٠ وقد هبط على الارض الساكنة سلام مطمئن ناعم ٠٠ ومضت العربة بسرعة ، والحوذى

يطقطق بلسانه فى جوف فمه ليستحث الجواد ٠٠ وآرسلت « جان » بصرها فى السماء التى كان يشقها سرب من العصافير ، مضى يحلق فى شبه دائرة ، وكأنه مجموعة من شهب ٠٠

ولم تلبث ان أحست بدفء ناعم ، دفء الحياة التى كانت تحاول ان تنبهها الى وجودها ، والذى سرى خلال ثيابها ، واخترق كل كيانها ٠٠ كان الدفء المنبعث من الجسم الضئيل الذى كان ينام فى حجرها ٠ وفجأة ، طغت عليها المشاعر ، فأزاحت اللفائف ، وتأملت وجه ابنة ابنها ٠٠ واذ وقع الضوء على وجه المخلوقة الصغيرة ، فتحت عينيها الزرقاوين ، وحركت شفتيها ، فضمتها « جان » الى صدرها ٠٠ ثم رفعتها بين يديها ، وشرعت تغمرها بالقبلات !

وهتفت « روزالى » بصوت حاد ، خامرته هناءة واغتباط : « كفى ياسيدة جان ٠٠ فلتكفى عن هذا والا ابكيت الطفلة المسكينة »

ثم أضافت فى صوت خافت ، وكأنها تعلق على أفكارها الخاصة التى كانت تجول بخاطرها : **« ان الحياة ـ رغم كل شىء ـ ليست دائما من الحسن أو السوء بالدرجة التى يخالها الناس عليها » !**

تعقيب على القصة

◆ والآن أيها القارىء ، وقد فرغت من قراءة هذه القصة ، لعل ذهنك قد انشغل بأكثر من سبب للتساؤل ، والتأمل ٠٠ وها أنذا أحاول أن أجيبك الى ما أرجح أنه قام فى ذهنك من أوجه التساؤل حول مغزى « حياة امرأة »

لو أننا تأملنا الشخصية الأولى فى رواية « حياة امرأة » ، شخصية المرأة التى دارت حولها الرواية ـ « جان » ـ لوجدنا كثيرا من أوجه الشبه بينها وبين « لور » أم « موباسان » ٠ ويقول « فرانسيس ستيجمولر » ـ فى كتابه الذى لخصته لك فى مقدمة الجزء الاول ـ ان (حياة امرأة) كانت « أقرب مؤلفات موباسان الى حياة أمه ، اذ أن «جان» ـ فى الرواية ـ صورة من لور ، وان كانت أقل منها ذكاء ، وأقل ثقافة ،وأقل نزوعا الى الاستقلال بشخصيتها ٠٠ فقد كانت مثالا للشابة المنحدرة من أسرة نورماندية طيبة ، والتى لا تصر على الطلاق ، بل تدع زوجها يواصل مغامراته الدنيئة ، حتى دمر حياتها وحياته ، وحياة سواه ٠٠ »

بل ان « موباسان » لم يغفل بعض التفصيلات الدقيقة فى شخصية أمه ، وهو يرسم شخصية « جان » ، من ذلك تصرف « جان » عند وفاة أمها ، وقضاؤها الليل الى جوار جسدها ، نجده فى خطاب من « لور » الى صديق صباها « فلوبير » ، وهى تحدثه عن أساها لوفاة أمها : « **استطعت أن أمكث الى النهاية بجوار جثمان الراحلة العزيزة ، فجلست ليلتين أتأمل وجهها الذى اتخذ ـ فى سكينة الموت العلوية ـ شيئا من ملامحه فى الايام الخالية ٠٠** »

٠٠ أما ما كانت « جان » تعانيه من وحدة ، وأحزان ، واستسلام للاحلام ، فنراه ممثلا فى بعض خطابات موباسان الى أمه ، فيما بين العامين الثالث والعشرين والخامس والعشرين من عمره ، من ذلك : « **لا أنفك أفكر فى الليالى الطوال التى ستقضينها وحدك ، تتمثلين ـ فى أسى ـ أولئك البعيدين عنك ، فى أحلام تخلفك سقيمة ، مهمومة ٠٠ ولسوف أتمثلك جالسة فى مقعدك المريح ، تحدقين فى نيران المدفأة كما يفعل اولئك الذين تهيم أفكارهم بعيدا** » ٠

٠٠ بل انه أضفى على شخصية « جان » بعض ما كان يخالجه هو نفسه ، فى العقد الثانى وبعض العقد الثالث من حياته ، فقد كتب الى أمه حين أجبرته الوظيفة الحكومية على الاقامة بعيدا عنها فى باريس : « **أشعر هنا بأننى تائه ، وحيد ، خائر الروح** » ٠٠ وكتب اليها فى مرة أخرى : « **لست مريضا ، بما للمرض من معنى ، ولكنى أحس بضعف شامل ، مخيف ، حتى**

لتمر بى لحظات أخال فيها ان عقلى لا يكاد يعمل ، فأظل حائرا اسائل نفسى : أمستيقظ أنا أم حالم ؟ » .. وهى نفس العبارات التى رأيناه يكررها فى تحليله لنفسية « جان » ..

ونحن نرى فى صورة « البارون » فى القصة ، لمحات من شخصية جد موباسان » لأمه .. فقد كان مسيو « لو بواتيفان » رجلا متحررا فى عقيدته الدينية ، لا يتردد على الكنيسة ، ولا يكرم رجال الدين ، مكتفيا بأن يكون مقتنعا فى دخيلة نفسه بأن ضميره راض مرتاح ، وان ما بينه وبين الله « عامر » دون وساطة رجال الدين .. وهكذا كان « البارون » !

بل ان ما أورده « موباسان » فى الرواية من تهكم برجال الدين والقساوسة ، ينبعث من عقدة كمنت فى نفسه منذ صباه .. عقدة خلفها نفوره وكراهيته لمدرسة دينية فى « ايفيتو » - بالقرب من (روان) - كان يتولى التدريس فيها « رهبان » ، وقد بلغ من كراهية « موباسان » لهذه المدرسة أنه هرب منها وادعى المرض ، تماما كما فعل « بول » فى الرواية ، ولكن أمه استطاعت أن ترده اليها ثانية ! على أن هذا لا يعنى ان « موباسان » أودع فى شخصية « بول » لمحات من نفسه هو ، بل انه فى الواقع صور فيها شخصية أخيه الاصغر « هرفيه » .

حملات النقاد الظالمة على القصة !

◆ **ولقد** تعرضت « حياة امرأة » لحملات كثيرة من النقاد : فلقد عاب بعضهم خلوها من « عقدة » قصصية .. والواقع ان هذا لم يقلل من شأنها ، بل لعله كان شهادة ببراعة « موباسان » فى خلق الحوادث أثناء تحليله لنفسية وحياة المرأة .. مما جعلها حية ، حافلة بالحركة والسحر والتشويق الى النهاية ..

وقال آخرون ان القصة تضم كثيرا من الصفحات التى يجوز للام ان تطلع عليها ابنتها ، ولكنها - فى مجموعها - لا تليق بأن تكون فى متناول جميع **أفراد الاسرة .. وفى هذا تحامل غير منصف ، فالواقع ان المواقف الصريحة التى أوردها « موباسان » فى القصة ، لم تقصد بها الاثارة الجنسية - كما قد يخيل لمن يقرأ الرواية قراءة عابرة دون درس أو تأن - وانما أورد موباسان تلك المواقف لتكون دروسا حية فى علاج مشكلتين من أهم المشكلات التى تهدم البيوت : مشكلة المسلك الذى يحسن بالزوجة ان تسلكه اذا مااكتشفت خيانة زوجها ، حتى لا تدفعه الى الامعان فى الخيانة .. ومشكلة الانانية الخاطئة التى تخالط حب الام لابنها ، وتؤدى فى كثير من الاحيان ، الى افساد الابن !**

كذلك عاب بعض النقاد على « حياة امرأة » انها توحى بأن حظ المرأة الآثمة ، الخاطئة - «روزالى» فى القصة - أسعد حظا من الزوجة الشريفة ، العفيفة !.. وفى هذا كثير من التجنى ، فالواقع أن « موباسان » انما أراد أن يبين كيف ان

الزوجة قد تكون هى اليد التى تدفع الزوج الى الخيانة ! وقد رسم ذلك فى موقف صدود«جان»واعراضها عن زوجها كلما أراد أن يتقاضاها حقوق الزوجية .. وهو صدود نابع عن حياء العذراء الطاهرة البريئة فعلا ، ولكنه ليس وليد السذاجة بقدر ماهو وليد اهمال الآباء والامهات اطلاع بناتهم - وأبنائهم أيضا - على ناحية من نواحى الحياة الزوجية ، ليس فيها مايخدش الحياء أو كرامة الانوثة أو الاخلاق ، لان الزواج يخلع عليها مشروعية بل وقداسة أيضا !

كذلك حاول « موباسان » - ووفق فى محاولته - ان يبين كيف ان نفور « جان » من زوجها بعد اكتشافها خيانته ، وكيف آن تشهيرها به اذ أطلعت ابويها والقس على ماحدث ، لم يصلحه ، بل دفعه الى التمادى والايغال فى الخيانة !

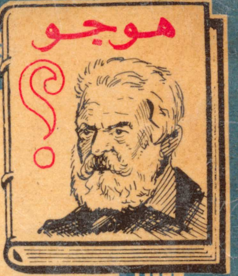
وناحية ثالثة .. تلك هى غيرة الاب الغريزية من ابنه حين تغالى الام فى ايثار صغيرها بحبها وعنايتها .. الغيرة التى تصرف الزوج عن الزوجة ، وتنفر الاب من ابنه !.. ولو عرفت الزوجة كيف تلتزم الحكمة فى توزيع عواطفها وعنايتها بين زوجها وابنها ، لاحتفظت بحب الاثنين !

ومما عابه أيضا بعض النقاد ، على « موباسان » أنه بتصويره شخصيتى « بول » و « دنيس » - ابن روزالى - قد انتصر لابن الحرام على ابن الحلال ، اذ أظهره أقوم خلقا وأصلح نشأة ، وأكثر جدا ، وأبر بأمه ، من ابن الحلال « بول » ! .. وفى هذا أيضا كثير من التجنى ، فالواقع - الذى قصد اليه « موباسان » وأحسن تصويره - هو ان الام قد تكون سببا فى اسعاد ابنها وتوجيهه الى مستقبل صالح ، كما أن بيدها أن تشقيه وتفسد عليه حياته !.. فان اسراف « جان » فى تدليل ابنها كان هو سر فساده ، وانحرافه .. أما « روزالى » فكانت تدرك أن ليس وراءها حسبا ، ولا نسبا ، ولا ثراء يشد أزر ابنها فى الحياة ، وان المزرعة الصغيرة التى منحه اياها « البارون » هى عتاده الوحيد ، فكان أن نشأته على الاستقامة والجد فى العمل ، لاستغلال المزرعة وتوسيع مساحتها ..

فهل تعاب على المؤلف هذه الدروس الاجتماعية الجليلة ؟

الواقع ان حملات النقاد هذه لم تؤد الا الى ترويج الرواية ، فما ان نشرت آخر حلقاتها فى «جيل بلان» ، حتى ظهرت فى أسواق الادب فى كتاب **مستقل ،** وترجمت فورا الى الانجليزية ، كما ترجمها « تولستوى » بعد ذلك الى الروسية، من فرط اعجابه بها .. **ولم تمض سنوات حتى رشحتها جماعة من كبار كتاب فرنسا - بينهم اندريه جيد ، وجان جيرودو ، وادمون جالو ، وفرانسوا مورياك، واندريه موروا - كاحدى « اعظم عشر روايات فى فرنسا » !**





مطبوعات كتابى

تقدّم لك فى أعدادها القادمة

مجموعة منتقاة من شوامخ الكتب العالمية ، لأشهر المؤلفين ، مترجمة عن شتى اللغات ، بأقلام أقدر المترجمين ..

انها السلسلة العربية الوحيدة التى تضع بين يديك الترجمة "الأمينة" الكاملة لأعظم ما أنتجه الفكر الأنسانى فى جميع العصور .. فى طبعات ثمينة الجوهر ، فاخرة المظهر ، زهيدة الثمن !

تابع الأعلانات عن أعدادها القادمة ومواعيد صدورها ، على صفحات «كتابى»





مطبوعات
كتابى
يصدرها : حلمى مراد

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩